جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

القَدَرُ

المُفْتَرَى عليه فى الإعلام العربى

أ. عبد التواب مصطفى

العدد ١٠٥

القاهرة
ذو القعدة ١٤٢٤هـ ـ يناير ٢٠٠٤م

يشرف على إصدارها

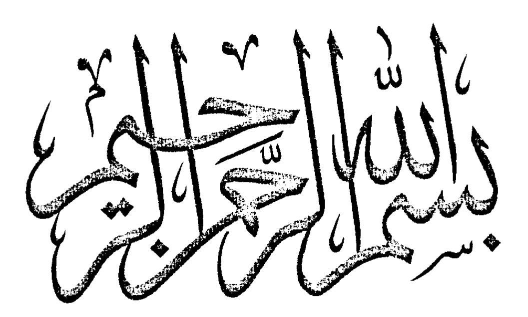
الدكتور/ **محمود حمدى زقزوق**

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ **عبد الصبور مرزوق**

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــــم

الحمد لله رب العالمين الذى قدر الأقدار ، وجعل لكـــل شـــىء قدرا .

والصلاة والسلام على النبى محمد الصـــادق الأميـن . خـــاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فإن القدر : القضاء والحكم . وهو ما يقدره الله عز وجـــل مـــن القضاء ويحكم به من الأمور .

ومعلوم أن مذهب أهل الحق إثبـــات القـــدر . ومعنـــاه : أن الله تبارك وتعالى قدّر الأشياء فى القدم ، وعلم سبحانه أنها ســـتقع فـــى أوقات معلومة عنده سبحانه ، وعلى صفات مخصوصة فـــهى تقـــع حسب ما قدرها سبحانه وتعالى .

والقدر ما سبق به العلم ، وجرى به القلم ، مما هو كـــائن إلـــى الأبد ، وأن الله عز وجل قدر مقادير الخلائق وما يكون من الأشـــياء

قبل أن تكون فى الأزل ، وعلم سبحانه أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده تعالى ، وعلى صفات مخصوصة فهى تقع حسب ما قدرها .

والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان ، كما جاء فى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما سأل جبريل عليه السلام الرسول ﷺ عن الإيمان فقال : **[أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره] .**

وفى حديث رواه الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : **[لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه] .**

وفى صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ : **[كل شىء بقدر حتى العجز والكيس] .**

ولما كان الإيمان بالقدر قضية إيمانية فقد تأمل الباحث عبد التواب مصطفى مواقف الناس فى مسيرتهم الحياتية فصادف هنالك أساليب، تتنافى مع ما ينبغى من الإيمان بالقدر ولهذا قدم هذا العمل " **القدر .. المفترى عليه فى الإعلام العربى** " ليكون عاملاً من عوامل التنبيه والإيقاظ حتى لا يتمادى الناس فى جهلهم وتجاهلهم لحقيقته ..

ولا شك أن هذا الكتاب : " **القدر .. المفترى عليه فى الإعــــلام العربى** " بجانب كونه أداة من أدوات التنبيه الفاعل والبانى فإنه كذلـك أسلوب أمثل فى مواجهة هذه الانحرافات .

وقد يكون واضحًا أن الباحث عبد التواب مصطفى مـــن رجـــال الإعلام الذين يعملون على وضع الأمور فى مواضعها ، ويحرصـــون على كل مفيد للأمة .

ولهذا جاء مؤلفه هذا ليأخذ بالقارئ إلى المسار الصحيح الــــذى ينبغى علينا الالتزام به . وإن كتابه " **القدر .. المفـــترى عليـــه فـــى الإعلام العربى** " علامة مضيئة فى الطريق ، كما أنه يُعدُّ وبحق مـــن معالم الإرشاد .

أ . د . أحمد عبد الرحيم السايح



مقدمـــــة

يُعد الإيمان بالقضاء والقدر من الأمور المعلومـــــة مـــن الديـــن بالضرورة ، بل يُعد أصلاً من أصول الدين وركائزه ، وأساسًا فـــــى بنية العقيدة الإسلامية .

وما ورد فى شأن الإيمان بالقضاء والقدر ، من نصوص قرآنيـــة محكمة وأحاديث نبوية صحيحة وآثار إجماعية موثوق بها هو موضع اتفاق بين جمهور علماء المسلمين ، وتصديق خاصة الأمة الإســـلامية وعامتها .

ثم إن المستقر ــ دينيًا وأخلاقيًا وعرفيًا ــ أن مــــا يؤمـــن بـــه فرد ما ، وأن ما تعتنقه جماعـــــة مـــا ، يجـــب أن يكـــون موضـــع إجلال وتقدير من جانب هذا الفرد أو تلك الجماعة من بـــــاب أولـــى قبل أن يطالب هذا الفردُ أو تلـــك الجماعـــة المخـــالفين لـــهم بمثـــل هذا الإجلال والتقدير .

ويعنى هذا أنه قد وجب على كل مسلم أن يولى عقيدته وإيمانـــه كل إجلال وتقدير ، وأن يصونهما من كل ما يمسهما أو ينال منـــهما قبل أن يطالب هذا المسلم ــ المخالفين له ــ بمثـــل هـــذا الإجـــلال والتقدير والمحافظة تجاه عقيدته وإيمانه .

ويعنى هذا أيضًا : أن على كل مسلم لديه أدنى قدر من الغيرة على دينه ألا يسمح ، وألا يقبل — من نفسه أو من الآخرين — أية إساءة أو تطاول . أو خطأ فى حق دينه ، أو أصل من أصول هذا الدين ..

وإذا كان هذا ما يجب علينا نحن المسلمين نحو ديننا .. فماذا دهى بعض أصحاب الأقلام وأهل الفكر والرأى والإبداع بيننا حتى يتمادوا فى الإساءة إلى أصل من أصول عقيدتنا ، ولماذا يتواصل تطاولهم على هذا الأصل من أصول الدين وعلى الركن الركين من أركان الإسلام ، **وأقصد به الإيمان بالقضاء والقدر** ..

وبتعبير آخر : إن مما يؤذى آذاننا ، ويؤلم قلوبنا ، ويؤرق مضاجعنا ، ما تبثه أو تنشره قنوات الثقافة والإعلام ، على ألسنة بعض أهل الفكر والفن والإبداع ، من خطأ فى حق الله — عز وجل — الذى هو — وحده — صاحب القضاء فينا ، ومقدر الأقدار فى جميع أحوالنا .

وقبل أن نخوض تفصيلاً فى بيان معنى القدر ، وطلاقة قدرة الله ومشيئته ، ونطاق قدرة الإنسان وحدود مشيئته ، نشير — بإيجاز — إلى أن عامة مَنْ يخاطبهم الإعلام العربى ، فى دائرتى العالمين العربى والإسلامى ، يؤمنون بأن القدر هو ما قدره الله أو قسمه لكل منهم ، من عمر أو رزق أو ذرية .. إلى آخر ما لا دخل

للإنسان فيه ، وما يخرج على حدود قدراته وإرادته وحريته واختياره .

والذى نؤمن به أيضًا أن علينا أن نقبل قضاء الله وقدره ، بكل رضا واطمئنان إلا أن قدر الله لا يأتى إلا بخير ، ومعنى هذا أن المؤمن لا يتمرد على قدر الله ، ولا يتبرم به ، ولا يضيق به ، ولا يسيء إليه بقول أو فعل .

ولكننا ــ على عكس هذا وإن مما يؤسف له ــ أن نرى ونسمع فى قنواتنا الثقافية والإعلامية المختلفة ، خطأ فى حق الله : صاحب القضاء ، وتطاولاً على أقداره فينا ، الأمر الذى يُعد إثمًا كبيرًا ومخالفة شرعية لا يقبلها مؤمن ، وتملى علينا وقفة مراجعة وتنقية لما تبثه وتنشره هذه القنوات ؛ لنخلصه من كل هذه الإساءات إلى القضاء والقدر ، والتى تشكل ظاهرة غير محمودة ، أو عُرفًا فاسدًا وجبت علينا مقاومته .

فتارة نسمع سبًا صريحًا فى حق القدر بأنه قدر (أحمق الخُطى) .

وتارة نسمع أنه قدر أعمى ، أو قدر مشئوم .

أو أنه قدر عنيد .

أو أنه قدر مراوغ .

أو أنه قدر مسرف .

أو أنه قدر غادر لا أمان له .

أو أنه قدر طائش .

أو أنه قدر ساخر .

أو أنه قدر غليظ ثقيل اليد .

أو أنه قدر يحاصرنا ، ونضيق به .

أو أنه قدر يمكن أن نتحداه ، ونملى إرادتنا عليه .

أو أنه قدر يعمل على إفساد ذات البين .

أو أنه قدر يرتب للعشاق سهرهم على الكأس والسمر .

أو أنه قدر كثيرًا ما يدفعنا إلى معاودة ما تُبنا عنه .. إلخ .

وقبل أن نتناول ذلك تفصيلاً ، سنعرض أولاً لتأصيل شرعى للإيمان بالقضاء والقدر ، وبيان لمفهومهما ، وماهية كل منهما ، لتأكيد ما لهذا الركن من أركان الإيمان من قداسة ومكانة فى نفوس المسلمين ، وما له علينا من واجب الإجلال والتوقير .

ولأمانة البحث فى تناول هذا الموضوع ، نذكر هنا أن قلة من الأعمال الفنية والإعلامية والثقافية ، حرصت على ألا تقع فى مثل هذه المخالفات الشرعية ، بل إن منها ما التزم الحذر فى الحديث عن القدر ، وتناوله بدرجة عالية من الوعى والإدراك ، نذكره فى حينه .

ولا عجب – طبعًا – أن نرى ضمن المواد الإعلامية والثقافية التى تنشرها صحافتنا وأجهزتنا الإعلامية ، مواد أجنبية ترجمها

مترجمونا متأثرين بما تعودت عليه أقلام بعض مبدعينا ومفكرينا من إساءات للقدر ووصفه بما لا يليق ، فيضيفون بذلك سوءاً آخر إلى جانب ما تحمله مضامين بعض هذه المواد من قيم وتقاليد لا تناسب مجتمعاتنا العربية والإسلامية .

وهذا أيضًا ليس حكمًا عامًا ، حيث يرد عليه الاستثناء ، فنجد مواد أجنبية مترجمة ، التزمت الحذر في الحديث عن القدر ، وتناولته بدرجة عالية من الفهم والإدراك .

وإذا كان المسح الذى قامت به هذه الدراسة ، للعديد من المواد الإعلامية والفنية والثقافية قد أظهر أن القاعدة أو الغالب في هذه المواد هى الإساءة إلى القدر ، فإننا نشير فى هذه المقدمة إلى أن خطورة هذا الأمر تتمثل ــ أكثر ــ فى تكرار إذاعة هذه الإساءات ، مما جعلها جارية بإلف وسلاسة على ألسنة المستمعين والمشاهدين والقراء ، برغم ما تنطوى عليه من مخالفات شرعية فى حق العقيدة الإسلامية .. فأين هى لجان النصوص والمراجعة والرقابة والمتابعة فى أجهزتنا الإعلامية والثقافية ؟

فى طبعات سابقة لهذا الكتاب ، كنت حريصًا على الإشارة إلى المصنفات الفنية محل الدراسة ، بأسمائها ، وكذا كنت حريصًا على ذكر أسماء الأشخاص المشاركين فى هذه الأعمال الفنية ، لتحديد المسئولية بشكل واضح عن هذا الخطأ أو ذاك ، مما انطوت عليه

هذه المصنفات من مخالفات دينية ــ عقائدية فى حق الله عز وجــل ، أو فى حق القدر ؛ إذ فى تصورى فإن تحديد المسئولية هكــذا يمثــل أداة ردع لهؤلاء المخطئين فى حق الله وقدره ، ولنظرائهم .

وإنى إذ أسجل جزيل شكرى وعظيم تقديرى لموافقــة المجلــس الأعلى للشئون الإسلامية على إعادة نشر هذا الكتاب ضمن إصداراتـــه أرى ضرورة التنويه هنا ، بأنه قد روعى فى هذه الطبعة أمر علـــى قدر كبير من الأهمية يتوافق مع سياســة هــذا المجلــس المرمــوق ورسالته كمؤسسة دينية وعلمية وثقافية تمتــد أبعــاد رســالتها إلــى أطراف العالم الإسلامى ، بل تتجاوزها . يتمثل هذا الأمر فى عـــدم ذكر أسماء تلك المصنفات الفنية أو الإعلامية أو الثقافية ، وكذا عــدم ذكر أسماء المشاركين فى إنتاجها مــن مؤلفيــن وكتــاب وشــعراء ومخرجين وممثلين ومطربين .. إلخ . ثم الاكتفـــاء بالإشــارة إلــى القالب الفنى ــ أغنية ، فيلم ، مسلســل ، مقالــة ــ لأى مــن هــذه الأعمال التى انطوت على أخطاء أو تجاوزات فى حق الله وقـــدره ، وتناولتها الدراسة فى فصولها التطبيقية أو التحليلية .

ولا شك أن فى ذلك خيرا أعم وفائدة أشمل ؛ إذ بتجريد الفكـــرة تتسع دائرة الإفادة منها ، ويلتزم جانب الصواب فيها كل من يقرؤهـــا أو يلم بها ، خاصة وأن هذا الكتاب يستهدف ترسيخ واحدة من أهــم القيم "عقائدية الإسلامية ــ الإيمان بالقضاء والقـــدر ، وعدم التــبرم

بهما لدى الجميع ، ويستهدف انتزاع الأعراف الفاسدة أو العبـــارات الخاطئة التى اعتاد البعض تزويدها فـــى حـــق القضـــاء والقـــدر .. يستهدف تنقية أحاديثنا وإبداعاتنا وإنتاجنا الإعلامى من هذه الأخطـــاء لدى هذا المؤلف أو ذاك المطرب ممن أخطأوا فى حق القـــدر فـــى أعمالهم الفنية ، ولدى غير هؤلاء ممن يحتمل وقوعهم فـــى الخطـــأ نفسه مستقبلاً .

والله الموفق والهادى إلى سبيل الرشاد ..

* * *



الفصل الأول

التأصيل الشرعى للإيمان بالقضاء والقدر



الفصل الأول

التأصيل الشرعى للإيمان بالقضاء والقدر

بسبب ارتباط مفهومَىْ القضاء والقدر ــ اصطلاحًا وموضوعًا ــ ارتبط الحديث عن أحدهما بالحديث عن الآخر .

وأوضح ما قيل فى هذا الصدد : إن القضاء هو إرادة الله الأزلية فيما لا يزال من الوقائع والأحداث ، أو حكمه أزلاً بوجــود الأشــياء أو عدم وجودها . والقدر هو إيقاعه ــ عز وجل ــ هذه الإرادة علــى قدر معلوم ، وتقدير معين فى ذواتها وأحوالها ، أو هــو إيجــاد الله الأشياء على كيفيات خاصة ، مع علمه الأزلى السابق بتفاصيل كــل الأقدار التى ستكون عليها الأحداث والأشياء (*) .

(*) للمزيد ، راجع :

١ ــ ابن قيم الجوزية ، الجواب الكافى ، تحقيق محب الدين الخطيــب ، ط٤ ، المكتبــة السلفية ١٤٠٧هــ ، من ص ١٨ــ٢٣، ١٣٤ــ١٤٠ .

٢ ــ أبو بكر الجزائرى ، منهاج المسلم ، ط٨ ، القاهرة ، دار فينوس للطباعة والنــشر ، ١٩٧٦ من ص ٤٦ــ٤٨ .

وقد قيل مثل هذا وغيره الكثير ، غير أن ما استقر لدينا ، ونميل إلى نقله ـ عن كتب التراث ـ بلغة عصرية ، هو أن قضاء الله هو حكمه الأزلى ، وأقضيته فينا هى جملة الأحكام التى أرادها سابقًا فى أمور حياتنا . ووقوع أو إيقاع هذه الأحكام هو تنفيذها ، ويكون هذا التنفيذ على هيئات أو كيفيات معينة تعرف بالمقادير أو الأقدار ، ومفردها : القدر .

فقضاء الله هو حكم لا يقع إلا بكيفية معينة ، أو على هيئة هى القدر .

وانظر معى إلى ما هو مستقر فى النظم القانونية المعاصرة ، حيث لا يكون الحكم القضائى قابلاً للتنفيذ بغير بيان واضح من جانب

= ٣ ـ محمد الأنور عيسى ، القضاء والقدر ، مجلة منار الإسلام (أبو ظبى) ، عدد سبتمبر / أكتوبر ١٩٨٠م ، ص ١٠٢ .

٤ ـ محمد سيد أحمد المسير ، فى نور العقيدة الإسلامية ، ط١ ، القاهرة ، دار الطباعة المحمدية ١٩٩٠م ، من ص ١٤٩ـ١٩٠ .

٥ ـ محمد عبد المنعم القيعى ، عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة ، ط٢ ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، سلسلة رسالة الإمام ، عدد ٩ ، مايو ١٩٨٦م ، ص ٦٥ .

٦ ـ محمد الغزالى ، هموم داعية ، ط٢ ، القاهرة ، دار البشير ، ١٤٠٥هـ ، من ص ١٠٥ـ١١٦ .

٧ ـ محمد متولى الشعراوى ، القضاء والقدر ، القاهرة ، أخبار اليوم ، سلسلة مكتبة الشعراوى الإسلامية ، ١٩٨٩م .

جهة إصداره ـ المحكمة المختصة ـ لكيفية تنفيذه ، وأداة تنفيـــذه ، وزمان هذا ومكانه .

فإذا صدر حكم بالإعدام ـ مثلاً ـ لا يكون قابلاً للتنفيذ ، بغـــير بيان ما إذا كان سينفذ شنقًا أو بالمقصلة أو بالغـــاز أو الكـــهرباء .. إلخ ، وفى زمان كذا ، وفى سجن كذا أو ساحة كذا .. [1] .

فالحكم بإعدام مرتكبى جريمة أو جرائم معينة هو قضاء واحـد ، ولكن تتباين كيفياته بعدد مَنْ صدر ضدهم هذا الحكـــم ، وبـــاختلاف ظروف كل قضية ، من مجتمع إلى آخر ، ومن زمن إلـــى آخـــر .. وهذه **الكيفيات هى الأقدار** .

وكذلك يكون قضاء الله علينا جميعًا بأن نموت حكمًـــا واحـــدًا ، لكن تتباين كيفيات تنفيذ هذا الحكم أو هذا القضاء ، بعدد مَنْ خلـق الله ـ عز وجل ـ من البشر ، فهذا يموت شهيدًا فى ساحة القتال ، وهذا يموت غريقًا ، وهذا يموت موتة كريمة على فراشه ، وذلك يمـــوت موتة سوء على طريق عام .. إلخ .

إذن فلا راد لقضاء الله ، فهو حكم أزلى . بينمـــا القـــدر أمـــره يختلف ، فهو قابل للتعديل ، بل قابل للرد .

---

(١) والمقصلة قد استوحاها الفرنسى guillotine من السيف الإسلامى .. فكانت أكـــثر شرعية ورحمة من أى وسيلة أخرى .. مراجعة .

ولا يعنى قبول القدر للتعديل أو الرد ، خضوعه لإرادة الإنسان فى مواجهة إرادة الله ، بل إن التعديل أو الرد يعرضان على القدر من جانب الله ذاته ، نتيجة أو محصلة أو أثرًا لوسائل معينة ، يوظفها الإنسان أو يُعملها طاعة لله ، وتقربًا إليه ، مثل وسيلة الدعاء أو الالتزام بالنوافل وغيرها .

ولذا فلسنا نسأل الله ــ حين ندعوه ــ أن يرد قضاءه عنا ، إنما نسأله ــ سبحانه ــ اللطف فيه ، فيأتى على هيئة فيها تلطف ورحمة بنا [1] .

وبيان هذا ــ بإيجاز ــ أن المؤمن بدعائه أو بالتزامه النوافل أو بمداومته على أعمال الخير والبر لن يرد قضاء الله عليه بالموت ، وإنما سينال هيئة كريمة لتنفيذ هذا القضاء عليه أو فيه .

وحين يقصر الإنسان فى عبادته ودعائه ربه ، ثم يأتيه قضاء الله على هيئة لا ترضيه ، فلا يلومن إلا نفسه .

وعلى كلا الوجهين فإن قدر الله لا يأتى المؤمنين إلا بخير ، فإن كانت السراء شكروا الله ، وذلك خير ، وإن كانت الضراء ، صبروا فأثيبوا وارتفعت منازلهم عند الله ، وذلك ــ أيضًا ــ خير .

---

(١) لذا كان على المؤمن أن يلهج لسانه بكلام طيب .. اللهم لا نسألك رَدّ القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه .. للحديث .. مراجعة .

وحديثنا ــ أولاً وأخيرًا ينصب على قدر الله ، وعلى أية هيئـــة أو كيفية كان ، قدر الله خيره وشره ، قـــدر الله اللطيــف الخبــير ، الرؤوف الرحيم ، ووجوب الرضا به ، والثناء عليه ، لا التبرم بـــه أو التطاول عليه .

وفى حديث سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ الـــذى فيه أن جبريل ــ عليه السلام ــ طلع على مجلــس صحابــة ســيدنا رسول الله ﷺ ليعلمهم دينهم ، وورد أن جبريل ــ عليه السلام ــ ســـأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فأجابه : **[أن تؤمن بالله وملائكته وكتبـــه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره]** (١) .

إذن فالإيمان بالقدر خيره وشره من جملة ما يؤمن به المسلم .

وفى سنن ابن ماجة عن عدى بن حاتم قال : قال لى رســول الله ﷺ : **[يا عدى أسلم تسلم قلت : وما الإسلام ؟ قال : أن تشـــهد أن لا إله إلا الله ، وتشهد أنى رسول الله ، وتؤمـــن بـــالأقدار كلـــها ، خيرها وشرها ، وحلوها ومرها]** (٢) .

فهذا ــ إذن ــ دليل أو نص فى أن الإيمان بالقدر مـــن جملـــة أركان الإسلام .

---

(١) رواه مسلم ، وشرح فى شرح الأربعين النووية لابن شرف الدين النووى .

(٢) عن جامع العلوم والحكم لابن رجب ، تحقيق الأحمـــدى أبـــو النـــور ، القـــاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ج١ ، أبريل ١٩٨٦م ، ص ١٥٦ .

والمشهور عن السلف وأهل الحديث ، أن الإيمان نية وقول وعمل وأن الأعمال كلها داخلة فى مسمى الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بزيادة أعمال الخير والبر والطاعة ، وينقص بالتقصير فيها .

يقول الله عز وجل : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ [1] .

وهكذا ، فمعانى الإيمان والإسلام تتكامل عقيدة وعملاً ، فالإيمان يشمل الأعمال كافة ، والإسلام الذى اشتهر بأنه أركان وأعمال يشمل الإيمان أيضًا كما ورد فى نص الحديث السابق ؛ لأنه لا يُقبل من مسلم عملٌ إلا بنية ، وإيمان مستقر يصدقه هذا العمل .

وعلى هذا ، فالإيمان بالقدر أصل مكين من أصول الدين الإسلامى الحنيف ، وجب علينا نحوه ما يجب علينا نحو كل أصول الدين .

وقد أكد الحق تبارك وتعالى حكمته فى التقدير ، ورحمته وعدله فى كل ما قسم لنا ، أو قدر لنا أو علينا ، وبين أن هذا القدر أو ذاك لا يخلو من خير ؛ لأنه من لدن لطيف خبير .

---

(١) الأنفال : ٢ .

فعلى الإطلاق ، يقول — عز وجل — : **﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾** [1] .

ويقول : **﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾** [2] .

ويقول : **﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾** [3] .

ثم لا يكتفي عز وجل — بنسب القدر أو إسناده إلى ذاته العليا ، وإنما يلحق هذا بثناء على نفسه وعلى قدره فيقول : **﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾** [4] .

ويقول : **﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾** [5] .

ويقول : **﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرًا ﴾** [6] .

ويقول : **﴿ وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ﴾** [7] .

ثم بين — سبحانه — أن الهدى هو العاقبة المحمودة دائمًا لقدره ، فيقول : **﴿ والذى قدر فهدى ﴾** [8] .

---

(١) القمر : ٤٩ .

(٢) الطلاق : ٣ .

(٣) الرعد : ٨ .

(٤) الأنعام : ٩٦ ، يس : ٣٨ ، فصلت : ١٢ .

(٥) المرسلات : ٢٣ .

(٦) الفرقان : ٢

(٧) الأحزاب : ٣٨ .

(٨) الأعلى : ٣ .

ولا شك، أن كل هذه الإرشادات تجعلنا أكثر رضا بقضـــاء الله ، وأكثر اطمئنانًا إليه ، مثنين عليه ، غير متبرمين به ، أو متطــاولين عليه ، خاصة إذا وقفنا على دلالة حديث رسول الله ﷺ الذى بين فيــه أن أمر المؤمن كله خير ، فيقول عليه الصلاة والسلام ــ : **[عجبًـــا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمـــن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صــبر ، فكان خيرًا له]** [1] (رواه مسلم) .

---

(١) راجع باب الصبر فى رياض الصالحين لابن شرف النووى .

الفصل الثانى

قضايا فرعية ترتبط بقضية
الإيمان بالقضاء والقدر

الفصل الثانى

قضايا فرعية

ترتبط بقضية الإيمان بالقضاء والقدر

مقدمـــة :

تتناول هذه الطائفة من المباحث المهمة عدداً من القضايا الفرعية المرتبطة بقضية الإيمان بالقضاء والقدر ، والتى هى — فى الأصـــل — امتداد للمعالجة الشرعية لمفهوم هذا الركن من أركان الإيمـــان ، التى تناولها الفصل الأول من هذه الدراسة .

ولكن لأن هذه القضايا تمثل نقاط حيرة وتساؤل ، وإعمالاً مكثفـــاً للذهن أو التفكير فيها ، وتحتاج إلى إجابات محددة ، ومعالجات بلغـــة عصرية ، تجلى بعض الغموض الذى اعترى المعالجات القديمـــة ، أو التراثية ، فقد فضل كاتب هذه السطور ، أن يخصص لكل من هـــذه القضايا مبحثًا فرعيًا يتناولها بشىء من الإيجاز ، رابطًا بينـــها وبيـــن الموضوع الرئيسى فى هذه الدراسة ، وأقصد به الإيمـــان بالقضـــاء

والقدر ، وما يجب له فى قلوب المسلمين من إجلال وتقدير ، ومكانة عميقة ككل أصول الدين .

ففى أحد هذه المباحث نبين أو نزيل الالتباس العالق بقضية الجبر والاختيار بالنسبة للإنسان ، وحدود إرادته فى كل من هاتين الدائرتين .

وفى مبحث آخر نبين الفروق بين نوعين من الهداية .. **هداية الإبانة** التى تكون لكل الناس ، **وهداية الإعانة** ، التى لا تكون إلا لأهل الطاعات .

وفى مبحث تال نبين حدود مشيئة الإنسان ، وطلاقة مشيئة الله .

وفى مبحث رابع نبين معنى ما سبق به الكتاب على الإنسان بعمل أهل الجنة أو عمل أهل النار .

وفى مبحث تال نبين حدود رحمة الله .. ولمن تكون .

ثم **فى مبحث آخر** فى هذا الفصل نبين أن التكذيب بالقدر يعد إحدى الكبائر ، التى لا يكمل أو يصح إيمان مرتكبها أو صاحبها إلا بالتوبة عنها .

* * *

المبحث الأول

الإنسان بين الجبر والاختيار

يعلق بعض ضعاف الإيمان ، بل والكافرون ، أخطاءهم ـ فـي العقائد وفى الأفعال ـ على قدر الله !

ويرى هؤلاء أن الله قدر عليهم أن يكفروا ، أو أن يقعـوا فيما وقعوا فيه ، من الذنوب أو الخطايا .

وهذا سوء ظن ، والتباس متعمد لحقائق الأمور التى أوضحتـها العقيدة الإسلامية ؛ فليس الإنسان مجبرًا أو مقهوراً على شىء ممـا أوقع فيه نفسه ، من ذنوب أو أخطاء . وإلا لكان ذلك متنافيًا تمامًـا مع ما كرَّم الله به الإنسان ، من عقل وتمييز جعلهما مناط التكـاليف الشرعية .

فالإنسان ـ فى العقيدة الإسلامية ـ مخير تمامًـا فـى دائـرة التكاليف الشرعية ، حيث يمكنه أن يؤمن ، ويمكنه أن يكفر ، ويمكنه أن يصيب ، ويمكنه أن يخطئ ، وليس واقعًا تحت أى نوع من القـهر أو الجبر فيما يقدم عليه من عمل ، قولاً أو فعلاً . وإلا لما كان هنـاك داع للحساب أو الميزان ، أو الجنة أو النار .

والله عز وجل أمر بتكاليف محددة ، وكان دور رسوله الكريم ﷺ الإبلاغ أو البلاغ المبين بها ، والالتزام بهذه التكاليف من عدمه هـو مسئولية الإنسان .

وكل ما فى الأمر ـ فى هـذه النقطـة ـ هـو أن الله ـ عـز وجل ـ لسبق علمه وإحاطته ، قد علم منذ القِدَم أن فلانًا مـن خلقـه سيؤمن ، وفلانًا سيكفر ، وأن فلانًا سـيصيب ، وفلانًـا سـيخطئ . ومعنى أن الله كتب ذلك عنده أنه قد علم به مسبقًا ، وليس المقصـود ـ إذن ـ أنه ـ سبحانه ـ كتبه على عباده أو فرضه عليهم [1] .

هذا فى دائرة التكاليف الشرعية التى طـالب الله بـها البـالغين والعقلاء من عباده ، ويمكن أن نُعَرِّف هذه الدائرة بدائرة الاختيار .

وهناك دائرة أخرى ، هى دائرة تسيير الإنسان ، ككـائن حـى ضَمِن له خالقه مقومات حياته .. من هـذه المقومـات الحياتيـة [2] أجهزة بيولوجية يتكون منها جسمه ، يسـيرها خالقـها ـ الله عـز وجل ـ بنظام معين ، ولهذه الأجهزة مقومات تشغيل وفرها الخـالق أيضًا مثل الهواء والماء والغذاء ، وهذه مجرد أمثلة وغيرها كثير .

---

(١) لم يأمر به .. مراجعه .

(٢) النسبة إلى حياة : حيوى .. مراجعه .

فتسيير الإنسان هنا لا علاقة له بالحرية من عدمها ، ولا مجال للقول فيه بالقهر أو الجبر ، بل هو تسيير من جانب الخالق — سبحانه — لا دخل للمخلوق فيه إلا واجب المحافظة والصيانة .

فالإنسان مخيرٌ — فى دائرة التكاليف الشرعية — مسيرٌ — فيما عدا ذلك — وليس ثمة ما يدعو للخلط .

وتأمل معنا الحجة الواهية التى احتج بها السابقون الذين أشركوا ، وادعوا أن الله شاء لهم الشرك .

يقول الله — عز وجل — : **﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾** [1] .

ويقول : **﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾** [2] .

وهكذا رد الله — عز وجل — على ادعاء هؤلاء وافترائهم عليه ، حين أرجعوا شركهم إلى مشيئة الله ، وهو سبحانه برئ من ذلك . وما كان ادعاؤهم هذا إلا اتباعًا للظن ، وتقليدًا أعمى ،

---

(١) الأنعام : ١٤٨ .

(٢) النحل : ٣٥ .

لمقولات السابقين وادعاءاتهم الكاذبة .

وأبان لهم – عز وجل – أنه أبلغهم تكليفاته ، من خلال رسله – الذين لم يكن عليهم إلا مجرد البلاغ المبين – أما اختيار هؤلاء المشركين الشرك ، أو الكفر بالله ، فهو مسئولية هؤلاء ، وأثر مباشر لإرادتهم الحرة دون جبر أو قهر .

* * *

المبحث الثانى

هداية الإبانة وهداية الإعانة

أساء بعض الناس الظن بالله ــ عز وجل ــ وافـــتروا عليـــه ، حين ادعوا أنهم لم يهتدوا لأن الله لم يرد لهم الهدايــــة ، ثــم ادعــوا ــ أيضًا ــ أنه لا فضل للمهتدين فى هدايتهم ، وقالوا إن الذى هـــدى هؤلاء هو الله ، وأن الذى أضلنا هو الله فلا وزر علينا ، ولا ثـــواب لهؤلاء وهذا سوء فهم ، وليس ســــوء ظــن ــ فحســب ــ بـــالله ، أو افتراء عليه .

وقد أدى سوء الفهم هذا بالبعض إلى درجة اليأس من الهدايـــة ، وأرجع هؤلاء استغراقهم فى المعاصى إلى مشيئة الله ، وغفلوا عـــن مسئوليتهم فى هذا الشأن ، ونسوا أنـــهم ضعفـــاء الإرادة ، خـــائرو العزيمة ، مدمنو المعصية ، مستلذو الخطيئة ، ولو قويت إرادتـــهم ، ونشطت عزائمهم ، وأقلعوا عن المعاصى ، وتعففوا عن الخطايـــا ، لتبدلت أحوالهم ، وكانوا من أهل التقوى والهداية والطريق القويم .

ولقد لزمنا هنا أن ننوه ، بأن سوء فهم هؤلاء مرجعه إلى عـــدم استيعابهم لبعض نصوص الآيات القرآنية فى شأن الهداية ومعناهـــا . ولذا وجب بيان الآتى :

وردت كلمة الهداية فـــى القـــرآن الكريـــم بمعنييـــن ، ويحـــدد السياق أىّ المعنيين هو المقصود :

المعنى الأول للهداية : هو الدلالة على الطريق ، أو التوضيـــح والإبانة ، وهذه مهمة رسل الله ، حيث إنهم يبلغون منهج الله ودينـــه إلى أقوامهم ويبينون لهم طريق الخير ، وطريق السوء ، مع الحـــث على الأول ، والتحذير من الثانى ، وبيـــان أن مرضـــاة الله تتحقـــق بالتزام الطريق الأول ، وغضبه يترتب على اختيار الطريق الثـــانى . فالهداية هنا إبانة وتوضيح وتبليغ للمنهج دون وصاية مـــن الرســـول على المدعوين .

وهذا المعنى للهداية ، أو هذا النوع من الهداية ، يُقصد به النـــاس جميعًا سواءٌ مـــن جـــانب الله ــ عـــز وجـــل ــ صـــاحب المنـــهج والتكليفات ، أم من جانب الرسول المُبلغ باسم الله . فـــالله ورســـوله حريصان على إبانة المنهج والتكليفات ، وطريق الالتزام ، وطريـــق الإعراض ، وللمدعو حرية الاختيار بين الالتزام والإعراض .

وفى هذا المعنى يقول الله ـ عز وجل ـ مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ [1] .

ويقول ـ عز وجل ـ متحدثًا عن الإنسان ـ المدعو أو محل الخطاب أو الدعوة ـ : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ [2] . أى بينا له طريقى الخير والشر ، والاختيار بينهما مسئوليته هو .

ولعلك تلحظ هنا أيضًا أن الله ـ عز وجل ـ قد أثبت مهمة الهداية لنفسه ـ لأنه سبحانه هو الذى يُعَلّم رسوله ويوحى إليه ، وإن كانت هذه المهمة هى مهمة الرسول ـ واقعًا ـ بالدرجة الأولى ، ثم ينتهى دور الرسول عند التبليغ ، أى عند الدلالة على الطريق وإبانتها للمدعوين .

والمعنى الثانى : الذى تأتى به كلمة الهداية فى القرآن الكريم هو الأمانة أو المساعدة على السير فى طريق الخير ، طريق الالتزام بمنهج الله الذى اختاره الإنسان بإرادته أولاً ، وبرغبته فى طاعة الله ، ليكون أهلاً لتلقى العون والمساعدة ، أو الإعانة على السير فى طريق الالتزام .

---

(١) الشورى : ٥٢ .

(٢) البلد : ١٠ .

فهؤلاء الذين خُيِّروا بين النجدين ، أى طريقى الخير والشر ، فاختاروا طريق الخير ، وأعرضوا عن طريق الشر ، كانوا أهلاً للإعانة على السير فى طريق الخير ، وهذا النوع من الهداية لا يكون إلا لأهل الطاعة ، ولا يكون لهم إلا من جانب الله — عز وجل — فهو بمنزلة التوفيق ، والزيادة لهم من جنس اختيارهم .

وفى هذا المعنى يقول الله — عز وجل — مخاطبًا رسوله : **﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾** [1] .

أى أن الإعانة على طريق الخير والإيمان والطاعة الذى يرضى الله — عز وجل — هى مسئولية الله تعالى ، تفضلاً منه ، وتوفيقاً منه للذين اختاروا طريق رضوانه وطاعته .

وتأكيدًا لهذا التوفيق الإلهى ، ومن باب التغلب كذلك نجد الحق تبارك وتعالى يُغَلِّب معنى الطاعة والخيرية ويجعلها مرادفًا للهدى ، أو يقصر معنى الهدى على الطاعة ، وكأنه — عز وجل — يقول لنا إنه ليس لأهل الشر والمعصية ، أى نصيب من معنى الهدى ، وأن أهل الخير والطاعة هم — وحدهم أهل الهدى ، وهم — وحدهم — الجديرون بإعانة الله إياهم على طريق الهدى . فهو — سبحانه — يزيدهم هدى — أى طاعة وخيرية — ويحبب إليهم الإيمان ويزينه فى

---

(١) القصص : ٥٦ .

قلوبهم تثبيتًا لهم وإعانة على الطريق الذى اختاروه ــ هم ــ بداية ، وبإرادتهم الحرة ، وفى هذا يقول ــ عز وجل ــ ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ [1] .

ويقول ــ كذلك ــ : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم** ﴾ [2] .

ولعل من أبرز ما يؤكد مسئولية الإنسان عن اختياره طريق الإيمان أو طريق الضلال ، قوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **وهديناه النجدين * فلا اقتحم العقبة** ﴾ [3] .

أى أننا أوضحنا ، وأبنّا للإنسان طريقى الخير والشر ، طريقى الإيمان والضلال ، ومزايا الأول ، ومساوئ الثانى ، لكنه لم يكلف نفسه مشقة الاختيار الصحيح ، فعملية الاختيار التى تعقب الإبانة ، عملية صعبة ، وقد عبر سبحانه عن الاختيار بالاقتحام لما تحتاجه عملية الاختيار من جهد ومشقة من جانب الإنسان من حيث إعمال العقل والفكر ، ومن حيث الالتزام بما يمليه هذا الاختيار الصحيح على صاحبه من أعمال بر وخير . إذن فإن ما يترتب على هداية الإبانة ، من اختيار والتزام ، يمثل قرارًا حرًا وأثرًا مباشرًا لإرادة

---

(١) محمد : ١٧ .

(٢) الحجرات : ٧ .

(٣) البلد : ١٠ــ١١ .

صاحبه ، وما هداية الإعانة من جانب الله لصـــاحب هــذا الاختيـــار الصحيح إلا تفضلاً وتوفيقًا من الله ، وهى عملية لاحقة .

وتأكيدًا لما سبق بيانه ، ولما كان متعلقًا بمشقة عملية الاختيــار ، فقد أشار القرآن الكريم إلى نفر آخر من الناس ، لم يكلفـــوا أنفســـهم مشقة هذا الاختيار بل إنهم استســـهلوا الميــل إلـــى طريـــق الشـــر والملذات ، وانخدعوا ببريق الدنيا ومتاعها ، واستحبوا هذا الذى عـبر عنه القرآن الكريم بـــ (العمى) حيث قال ـــ عز وجل ـــ : **﴿ وأمـــا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾** [1] . ومعنى هديناهم ، أى أوضحنا لهم الطريقين .

وكما كان الله مقبلاً على الذين أقبلوا عليه وعلى منهاجه ، حيــن زاد الذين اهتدوا هدى ، ووفق المؤمنين إلـــى مزيـــد مـــن الإيمـــان والطاعات ، وآتاهم تقواهم ، كذلك نجده ـــ عز وجل ـــ معرضًا عـــن الذين أعرضوا عن طريقه ، وأشركوا أو كفروا أو عصوا ، وتمـــادوا فى المعصية ، فغضب عليهم ، ولم يزدهم إلا من جنس اختيـــارهم ، أى زادهم ضلالاً ، بل وتركهم فى ضلالـــــهم وطغيانـــهم يعمـــهون ويتخبطون ، فهؤلاء ليسوا أهلاً ، لأى معونة أو توفيـــق مـــن جـــانب الله ـــ عز وجل ـــ .

---

(١) فصلت : ١٧ .

فهداية الله تكون بمعنى إعانة المطيعين على مزيد من الطاعـــة ـ التى اختاروها هم أولاً ـ وإضلال الله يكون بمعنى دفع الضـــالين إلى مزيد من الضلال الذى اختاروه هم أولاً .

أى لم تكن إعانة الله لأهل الطاعات إلا بعد اختيارهم ـ هـــم ـ بداية طريق الطاعة ، ولم يكن دفع الضالين إلى مزيد مـــن الضـــلال إلا بعد اختيارهم هم طريق الضلال ، بدايةً .

وفى هذا المعنى تأتى الآيات القرآنية الكريمة غاية فى الدقـــة ، وغاية فى الوضوح . فى مثل قوله تعالى : **﴿ إنَّ الذين لا يؤمنـــون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾** (١) .

﴿من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾ (٢).

﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾ (٣) .

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلـــى شـــياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بـــهم ويمدهـــم فى طغيانهم يعمهون ﴾ (٤) .

---

(١) النمـــل : ٤ .

(٢) الأعراف : ١٨٦ .

(٣) يونس : ١١ .

(٤) البقرة : ١٤ـ١٥ .

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين ﴾ [1].

وكذلك يقول ــ عز وجل ــ :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ [2] .

وبهذه الآية الأخيرة يتأكد ما سبق بيانه ، بل إنها تجمع كل ما نريد قوله من أن الله ــ عز وجل ــ يبين للناس ــ من خلال الرسل طريق الخير وطريق الشر ، ثم يكون اختيار أى الطريقتين مسئولية هؤلاء الناس ، ثم يعقب ذلك توفيق الله لأهل طريق الخير ، أو إضلاله ــ عز وجل ــ لأهل طريق الشر .

وهناك لطيفتان مهمتان فى هذه الآية أيضًا ، يجب التنويه بهما ، **أولاهما** : الحذف البليغ على طريقة القرآن الكريم ، حيث لم تشر الآية إلى عملية الاختيار ، لأنها مفهومة ضمنًا ، ومفهومة أيضًا فى سياق الآيات المتعددة سابقة الذكر .

وثانيتهما : أن الآية اعتمدت أسلوب التغليب ، حيث غلبت معنى الطاعة وجعلته مرادفًا للهدى ــ أو قصرت الهدى على الطاعة ، بمعنى أن الآية حين استخدمت تعبير (يهدى من يشاء)

---

(1) [illegible] : ٣٦ .

(2) [illegible]

فهى تعنى أن الله يزيد أهل الطاعة توفيقًا فـــى طاعتـــهم ؛ لأنـــهم ــ وحدهم ــ هم أهل الهدى .

وكذلك فالله تبارك وتعالى ــ يؤكد أنه حين حجب هدايته بمعناها السابق الخاص بالإعانة ــ عن أناس من البشر ، كان مرجع ذلك إلى أنهم ليسوا أهلاً لهذه الهداية ؛ فهم قد كفروا وظلموا وفسقوا وكذبـــوا بل وأسرفوا فى ممارستهم لكل هذه الصور من الضـــلال ، فكيـف يكونون أهلاً لتوفيق الله أو إعانته ، وقد فعلوا كـل هـذا فـى حـق الله ــ عز وجل ــ ؟!

بل كيف تكون لهم إعانة ، أو يكون لهم التوفيق من جـــانب الله ــ عز وجل ــ وهم قد أعرضوا عنه كلية منذ البدايـة ، حيـث لـم يؤمنوا به ، ولم يختاروا طريق الطاعة .

يقول الله عز وجل ــ : **﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾** (١) .

ويقول : **﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾** (٢) .

ويقول : **﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾** (٣) .

ويقول : **﴿ إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾** (٤) .

ويقول : **﴿ إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾** (٥) .

---

(١) البقرة : ٢٦٤ . (٢) البقرة : ٢٥٨ . (٣) التوبة : ٢٤ .
(٤) الزمر : ٣ . (٥) غافـر : ٢٨ .



المبحث الثالث

مشيئة الله ومشيئة الإنسان

يتوهم البعض أن هناك تعارضًا بين آيتين كريمتين ، يقـــول الله ــ عز وجل ــ فى إحداهما: ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشــاء الله** ﴾ [1] . ويقول فى الأخرى : ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفـــر** ﴾ [2] . ويتساءلون : كيف تكون لإنسان مشيئة يختار بها الإيمان أو الكفــر ، بينما يقرر الله أن مشيئة الإنسان هى مجرد امتداد لمشيئة الله ــ عــز وجل ــ وأنه ليس لإنسان أن يشاء إلا ما يشاء الله ؟!

وفى الواقع ، فنحن لا نرى تعارضًــا بيــن مضمــون الآيتيــن الكريمتين ، ذلك لأن مشيئة الإنسان متعلقة ــ فقط ــ بدائرة التكـــاليف الشرعية ، والالتزام بها من عدمه ، كما سبقت الإشارة إليـــه فـــهى مشيئة محدودة بهذه الدائرة وهذا واقع مـــن حيــث دائــرة ســريانها أو أعمالها .

---

(١) الإنسان : ٣٠ .

(٢) الكهف : ٢٩ .

أما من حيث مصدر المشيئة الإنسانية أو سندها فمن المؤكـــد أن هذا المصدر هو مشيئة الله ، الذى شاء مُسَّبقًا أن يخلق الإنسان حـــرًا ذا إرادة أو ذا مشيئة ، يستطيع بـــها أن يقبـــل تكـــاليف الله ، أو أن يرفضها .

ولو شاء الله من البداية أن يخلق الإنسان غير مختار ، كالملائكة مثلاً لكان له ذلك ــ بالطبع ــ ولأصبح الإنسان غير ذى مشيئة .

إذن فالمقصود بمشيئة الله فى هذه النقطة ، هـــو أنـــه ــ عــز وجل ــ صاحب المشيئة الأولى الذى شاء أن يمنح الإنســـان العقـــل والحرية والإرادة والاختيار ، ثم كانت مشيئة العبـــاد واختياراتـــهم ، أثرًا لمشيئة الله فى خلقهم أحرارًا مختارين .

ولو شاء لخلقهم مسيرين فى كل شىء ، حتى فى دائرة التكـــاليف كالملائكة ، كما ذكرنا من قبل ، ولكنـــه شـــاء أن يمنحـــهم العقـــل والمشيئة ليكونوا أهلاً للتكليف ، ثم الحساب ، ثم الثواب أو العقاب .

وصدق الحق تبارك وتعالى ــ حيث قـــال : **﴿ ولـــو شـــاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم ﴾** [1] .

أى : ولكن الله أراد أن يجعلكم محل أو موضـــع ابتـــلاء ، أى اختبار ــ بالتكاليف ــ ثم يحاسبكم وينفذ فيكم سنة الثواب والعقاب .

---

(١) المائدة : ٤٨ .

وهكذا يتضح معنى قوله ــ عز وجل ــ : **﴿ وما تشـــاءون إلا أن يشاء الله ﴾** أى : وما تمتعكم يـــا بنـــى آدم بـــالإرادة والمشـــيئة والاختيار إلا تفضلاً من جانب الله عليكم ، حين خلقكم ، أو شـــاء أن يخلقكم أحرارًا مختارين ، أو : ما كان لكم يا بنـــى آدم أن تشـــاءوا ــ تختاروا ــ لولا أن الله شاء لكم ذلك من قبل .

وبالطبع لو شاء الله أن يسلب بنى آدم حاليًا هذا الفضـــل ، أى أن يسلبهم الحرية والإرادة والمشيئة والاختيار ، ما منعـــه مـــانع ، لأن الأصل فى مشيئته ــ سبحانه ــ أنها مطلقة ، لا يحدها مانع الزمـــان أو المكان أو أحد ممن خلق جميعًا .

ولكن برغم طلاقة هذه المشيئة الإلهية ، ونفاذها عـــبر الزمـــان والمكان ، فإن الله أراد أن يقف بهذه المشيئة فيما يتعلـــق بالإنســـان ــ عند خلق الإنسان حرًا مختارًا ، وفى جانب محـــدد هـــو جـــانب التكاليف الشرعية فحسب وسمح للإنسان أن يكون صـــاحب مشـــيئة وإرادة ، تجاه جانب التكاليف الشرعية ، وما عدا ذلـــك مـــن بقيـــة الجوانب المتعلقة بالإنسان من ميلاد ورزق وذرية وأجل فـــلا محـــل لمشيئة الإنسان فيها ــ كما سبق بيان ذلك من قبل أيضًـــا ــ حيـــث يحكمها الأصل العام لمشيئة الله ألا وهـــى الطلاقـــة عـــبر الزمـــان والمكان .

هذا بالنسبة لمشيئة الله المطلقة والتى على أثرها أو فى إطارهـا منح الله الإنسان قدراً من المشيئة فى جانب معين من جوانب حياته ، وهو التكاليف الشرعية فقط .

فإذا ما انتقلنا إلى مشيئة الإنسان وفى الدائرة المسموح لـه أن يعمل أو يوظف مشيئته فيها ، وهى دائرة التكاليف الشرعية ، مـن حيث قبولها جملة ، أو الاختيار من بينها ، أو رفضها كلية فنقـول إن الإنسان له مشيئة مطلقة وحرية تامة داخل هذه الدائرة .

وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول : **﴿ وهديناه النجدين ﴾** أى بينا للإنسان الطريقين ــ الخير والشر أو الإيمان والكفـر ــ ثـم يقول ــ عز وجل ــ **﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾** .

ولا مجال هنا للقول بتعارض مشيئة الإنسان مـع مشـيئة الله ، لانفكاك الجهة بين المشيئتين فى دائرة التكاليف الشرعية .

فمشيئة الله مطلقة تمامًا ، فى كل شئون هذا الكـون بمـا فيـه الإنسان ولو شاء الله لسلب الإنسان مشيئته . والله هـو الـذى منـح الإنسان هذا القدر من المشيئة ، وأطلق له حرية إعماله فـى دائـرة معينة (التكاليف) وعليه فمشيئة الإنسان فى هـذه الدائـرة مطلقـة أيضًا . غير متعارضة مع مشيئة الله .

ولا نتصور التعارض إلا بين المشيئات البشرية ، بعضها تجـاه بعض ، فهذا يريد أو يشاء أن يؤمن ، وذاك يريد أو يشاء أن يكفـر ،

فهؤلاء جميعًا بشر، مخاطبون بالتكاليف ، ويمكن أن تتباين مواقفهم ، أى تتعارض مشيئاتهم تجاه هذه التكاليف ، رفضًا أو قبولاً .

وبهذا يكون للعقل معنى فى حياة الإنسان ، وللحساب وللثواب والعقاب معنى ، وللجنة والنار معنى . فالمؤمن الذى اختار أو شاء الإيمان كان صاحب مشيئة ــ إرادة ــ حرة ، وسيثاب عدلاً ، والكافر أو العاصى حين اختار أو شاء الكفر أو المعصية ، كان صاحب مشيئة ــ إرادة ــ حرة وسيعاقب عدلاً .

ولحساسية هذه النقطة أعود فأؤكد أن مشيئة الله نافذة ومستمرة فى باقى أمور حياة الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولم ولن تتوقف عند حد معين كما توقفت فى دائرة التكاليف عند حد خلق الإنسان حرًا فى الطاعة والمعصية ودون إجباره أو قهره على الطاعة أو المعصية .

وبالطبع فنحن ــ أيضًا ــ لم نقصد بتوقف مشيئة الله عند حد معين ، فى دائرة تكاليف الإنسان أن مشيئة الله قد توقفت لتحل محلها مشيئة الإنسان ، لا .. لأن الله قادر على إنفاذ مشيئته فى كل شىء وفى أى وقت ، لكن المقصود أن الله أعطى بإرادته فرصة للإنسان ليعمل أو ليوظف عقله ، ويكون محلاً للابتلاء والاختبار حينًا من الدهر ــ هو الحياة الدنيا ــ وفى دائرة معينة ــ هى التكاليف ــ ليكون أهلاً للحساب فيما بعد ..

وخارج هذه الدائرة ـ التكـــاليف ـ تظـل مشـيئة الله نــافذة ومتحكمة فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة الإنسان ، ومشيئته سـبحانه تتمثل فى قضائه ، أى أحكامه ، وقدره يتمثل فى هيئات تنفيذه لـــهذه الأحكام .

وكما سبقت الإشارة إليه ، فنحن لا يمكننا أن نرد قضـــاء الله ، ولكن يمكننا أن ننال هيئة معينة لتنفيذ هذا القضاء ، أى قدراً لطيفًـا ، وذلك بفضل الدعاء والإكثار من النوافل وسائر أعمال الــبر ، هنـا تتأكد دلالة الدعـــاء الجـامع (**اللـــهم إنـا لا نســألك رد القضـــاء ولكنا نسألك اللطف فيه**) .

وعليه ، فيمكن القول بأن المقادير ـ هيئات تنفيـذ القضــاء ـ تتغير وتتبدل ، بل يمكن أن يصرفها الله عن الإنسان على أثر عمــل هذا الإنسان .

وقد ورد فى شرح الأربعين النووية أن التقادير (أى المقــادير) ثلاثة :

١ ـ تقدير فى الرحم ، وذلك أن الملك يكتب ـ بـــأمر الله ـ رزق الإنسان وأجله وشقى هو أو سعيد .

٢ ــ تقدير فى اللوح المحفوظ ، يمكن أن يتغير لقــــول الله ــ عــز وجل ــ : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ [١] .

وكان ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ يدعو : (**اللهم إن كنــت كتبتنى شقيًا فامحنى واكتبنى سعيدًا**) .

٣ ــ تقدير يصرفه الله عن العبد قبل أن يصل إليه ، وذلك إذا حصــــل اللطف من الله للعبد نتيجة دعائه أو أعماله الصالحة .

ــ وفى الحديث الشريف : [**إن الصدقة وصلة الرحم تدفــــع ميتــة السوء**] .

ــ وفى الحديث الشريف أيضًا : [**إن الدعاء والبلاء ليقتتلان بيــــن السماء والأرض ، ويدفع الدعاءُ البلاءَ قبل أن ينزل**] .

ولعله من البدهى أن تصريــــف القضـــاء ، أو اللطــف فيــه ، لا يكونان إلا فى حق المؤمـــن ؛ حيــث لا معنـــى لأى رأى فيـــهما فى جانب الكافر أو المشرك ، اللذين خرجا بكفرهما أو شركهما مـــن دائرة رحمة الله كلية .

يقول الله ــ عز وجل ــ : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك** ﴾ [٢] .

---

(١) الرعد : ٣٩ .

(٢) النساء : ٤٨ ، ١١٦ .

ثم يخاطب ـــ أيضًا ـــ المؤمنين به أو عباده : ﴿ **قل يا عبـــادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمـــة الله إن الله يغفـــر الذنوب جميعا ..** ﴾ [1] .

ولعلك ـــ قارئى الكريم ـــ تلحظ أن الخطاب فى الآية الثانية وقد توجه إلى المؤمنين ، فقد استبعد الكافرين والمشركين ، ثم إنه حينمـــا قال ـــ سبحانه لهؤلاء المؤمنين ـــ تحديدًا ـــ إن الله يغفـــر الذنـــوب جميعًا ـــ فهو يزف إليهم بشرى خاصة بهم ، وهى إمكانية غفـــران ذنوبهم التى لا يرقى أىّ منها إلى درجة الكفر أو الشـــرك ، فـــهذان لا يغفران مطلقًا .

وبدهى أيضًا أن قوله ـــ ســـبحانه للمؤمنيـــن : ﴿ **إن الله يغفـــر الذنوب جميعًا** ﴾ يعنى فقط أن ذنوب المؤمنين قابلة للمغفرة إن أخـــذ هؤلاء المؤمنون بأسباب المغفرة : من توبة واستغفار وإتْباع للسـيئات بالحسنات .. إلخ .. وإلا فإن هذه الذنوب تظل فى حســـابات هـــؤلاء وسيعاقبون عليها بدرجات متفاوتة ، تفاوت الدرجـــات أو المراتـــب بين الكبائر واللمم من الذنوب .

وهذه الفئة من الناس أى المؤمنون هم أهل اللطف فـــى التقديـــر من جانب الله ـــ عز وجل ـــ أى هم المستحقون لهذا اللطف ، إن هـــم

---

(١) الزمر : ٥٣ .

أعملوا أسبابه ، أو أخذوا بها فالله يُعدّل لهم أقدارهم إلى الأفضـــل ، أو يصرفها عنهم ــ إن كانت أزلاً أى بدايةً ، تحمل إليـــهم ســـوءاً ، والذين يغفلون عن الأخذ بأسباب هذا اللطف ، فيقصرون فى دعـــاء الله ، أو صلة أرحامهم أو يهملون النوافل ــ مثـــلاً ــ فليـــس لـــهم إلا ما قدر الله لهم أو عليهم ــ أزلاً ــ دون صرف أو تلطف ، سواء أكان هذا التقدير مرضيًا لهم ، أم غير مُرْضٍ .

بقيت نقطة نختم بها هـــذا المبحـــث ، نبيـــن فيـــها أن البـــلاء أو الابتلاء مستويان .

أولهما يكون فى حق الإنسان على إطلاقه ، حيث يتعرض بنـــو آدم جميعًا ، لابتلاء بمعنى الاختبار أو التجريب من جانب الله ــ عز وجل ــ ليتبين من منهم الذى سيؤمن ، ومـــن ســـيكفر أو يشـــرك . ولا يترتب على هذا الاختبار إلا معرفة المؤمن من الكافر . وبلا شك فإن عقل الإنسان ومشيئته هما مناط هذا الاختبار .

وفى اللغة ، يقال : ابتلاه أى جربه وعرفه .. وبلاه وفى هـــذا يقول تعالى : **﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكـــم ﴾** (١) ويقول : **﴿ فمن شاء فليؤمن ومـــن شـــاء فليكفـــر ﴾** (٢) . وثـــانى

(١) المائدة : ٤٨ .

(٢) الكهف : ٢٩ .

المستويين لا يكون إلا فى حق أو جانب المؤمنين ، ويكون أيضًا بمعنى الاختبار أو التجريب ، ولكنه يستهدف الفتنة والتمحيص لهؤلاء المؤمنين حتى يتبين أقوياء الإيمان من الضعفاء ، وكذا مراتب هؤلاء ، أو ما يستحقونه من درجات متفاوتة فى الجنة إن شاء الله تعالى ، وبدهى أيضًا ، أن عقل الإنسان ومشيئته هى مناط هذا الاختبار .. يقال فى **اللغة :** بلاه يبلوه بلاء . أى اختبره . والبلاء هو المحنة تنزل بالمرء ليختبر بها . والبلاء قد يكون بالنعمة أيضًا .

يقول الله — عز وجل — : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ [١] .

ويقول : ﴿ **ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾ [٢] .

ويقول : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن** ﴾ [٣] .

وقد بين رسول الله ﷺ أن الأنبياء هم الأكثر بلاء أو اختبارًا ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس .. وكما بين فى الحديث الشريف أيضًا **[لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يلقى ربه ، وما عليه مثقال ذرة من إثم]** ، وأن الابتلاء يُسقط الذنوب عن المؤمن ، أو يرفع درجته ويزيد أجره عند ربه مهما كان هذا الابتلاء يسيرًا (حتى الشوكة يشاكها) .

---

(١) الأنبياء : ٣٥ . (٢) البقرة : ١٥٥ .

(٣) البقرة : ١٢٤ .

المبحث الرابع

معنى سَبْق الكتاب على الإنسان

ورد فى الحديث الشريف ما يفيد — فى ظاهره — أن الله قد كتب على بعض عباده ، أن يعمل بعمل أهل النار فى آخر حياته فيدخلها رغم أنه طيلة حياته كان يعمل بعمل أهل الجنة ، وأن الله كتب لبعض العصاة أن يعملوا فى آخر أيام حياتهم بعمل أهل الجنة فيدخلوها ، برغم كونهم من أصحاب المعاصى طيلة حياتهم .

ففى الحديث الشريف عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ **[فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها]** [1].

---

(١) الأحاديث القدسية ، ط ٦ ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص : ١٠٩ ، وقد ورد فى المرجع نفسه روايات متعددة لحديث (سبق الكتاب) أخرجها البخارى ، وابن ماجة : ص ١٠٧ — ١١٥ .

وعبارة (فيسبق عليه الكتاب) يفيد ــ فــى ظاهرهــا ــ أن الله فوت فرصة دخول الجنة على أهل الطاعات ، بما كتب عليهم ، مــن أعمال أهل النار فى آخر حياتهم ، ويفيد ظاهرها كذلك أن الله منـــح الجنة لغير مستحقيها أى أهل المعاصى ، بما كتب لهم مـــن أعمـــال أهل الجنة ، فى آخر حياتهم .

والصحيح أن الحديث لم يقصد شيئًا من هذا المعنـــى الظـــاهر ، وحاشا لله العادل ، أن يفعل ذلك بعباده ، تعسفًا أو قهرًا أو ظلمًا .

وبيان ذلك عقلاً وشرعًا فيما يلى :

إن المنطق الصحيح يقرر هنا ، أنه إذا كان لا يحق للإنســـان أن يبرر أخطاءه ومعاصيه ، بنسبتها إلى مشـــيئة الله ــ باعتبـــار هـــذا الإنسان حرًا ومسئولاً عن اختياره ، (ارتكاب الأخطاء والمعـــاصى)، فكذلك لا يقبل ، أو يعقل أن يُجبر الإنسان على شـــىء ثـــم يعـــاقب عليه .

فالإنسان فى دائرة التكاليف الشرعية مختار أو مخير ، فإن عمل بعمل أهل النار ، طيلة حياته ، ثم تاب فى نهايتها ، توبة نصوحًـــا ، وعمل بعمل أهل الجنة ، فالتوبة كانت اختياره وقراره ، ولم يدخـــل الجنة إلا بسبب توبته ، وما تلاها من عمل صالح . وكذلك من عمـــل طيلة حياته بعمل أهل الجنة ، ثـــم فـــى نهايتـــها ، ضـــل أو فســـق

أو ارتكب الكبائر ، فهذه أعماله ، وهى اختياره وإدارته ، التى يجب أن ينال عقابه فى ضوئها ، وهذا العقاب هو دخول النار .

وهكذا فلا يكون لعبارة (سبق الكتاب) إلا معنى واحد ، وهو سبق (علم الله) بما سيفعل عباده ، فى نهايات حياتهم ، فعلم الله أزلى وسابق ، بما أنه منذ القدم يعلم ما سيكون وما سيقع من جانب عباده مستقبلا إذن فليس معنى (سبق الكتاب) هو إجبار الله عباده ، على عمل ما ، وإنما معناه ظهور علم الله عن عبده . فالعلم الأزلى صفة انكشاف لله ــ عز وجل ــ لا صفة [illegible] [1] .

وما نجده فى كتب العقيدة من أن الله خلق أفعال العباد ليس مقصودا به أن الله ألزم عباده ، أن يفعلوا أيا من هذه الأفعال ، فلم يجبر الله محسنًا على إحسانه ، ولم يجبر مسيئا على إساءته ، بل المقصود هو أن الله خلق (أجناس هذه الأفعال) كما خلق بقية أجناس الأشياء أى أنه ــ عز وجل ــ خلق أفعال (الصلاة والصوم والجهاد والتنفس . . إلخ) كما خلق الطير والشجر والنجوم ، وإذا كان الإنسان قادرا على أن يطيع ربه فيصلى ، وأن يعصيه فلا يصلى فمعنى هذا أن إيقاع هذه الأفعال أو إقدام الإنسان على أدائها ، داخل فى دائرة مشيئة الإنسان (التكاليف الشرعية) ؛

---

(١) محمد عبد المنعم القيعى ، مرجع سابق ، ص ٦٨ ــ ٦٩ .

وما عدا ذلك ، أو ما يخرج على دائرة التكاليف الشرعية من أفعال ، فهو داخل فى دائرة التسيير الإلهى المطلق للأشياء والأفعال التى لا طاقة للإنسان بها ، كتسيير الله لأجهزة جسم الإنسان من قلب أو معدة أو غيرهما ، وكتسيير الله للشمس والقمر .

وفى دائرة الأعمال أو الأفعال التى تشملها التكاليف الشرعية فإن المكلفين هم الذين يكتسبون الأفعال أو يوقعونها ، ويضيفونها إلى أنفسهم فتنسب إليهم ويحاسبون عليها [1]. فالله خلق الصلاة أى أوجدها على هيئة معينة أو كنوع من العبادات ، أما أداؤها أو الالتزام بها من عدمه فمرجعه إلى الإنسان فهو المكلف بها والمساءل عنها .

ولحديث (سبق الكتاب) دلالة أخرى يقصدها رسول الله ﷺ وهو تحذيرنا من الشيطان ، وأن نعلم أن الشيطان لن يتركنا حتى نهاية عمرنا بوسوسته وإضلاله ومحاولات إغرائنا بالمعصية حتى نقع فيها ، ولو فى الساعات الأخيرة من حياتنا ، ويعنى هذا أن على المؤمن أن يحذر الشيطان ، حتى آخر نفس من أنفاسه ، وإن ضعف المؤمن أمام الشيطان فهو المسئول ، وليس كتاب الله ملزما إياه ، لأن هذا الكتاب لا يعنى أكثر من مجرد علم الله المسبق بما سيقع

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

من جانب هذا المؤمن الضعيف ، وقد دونه الله فى كتــاب هــذا الإنسان ، أو فى علم الله ، السابق بما سيكون عليـــه مــن مصـــائر العباد ، وما سيفعلون [١].

ثم إن اضطراب الروابط بين السبب والنتيجة مرفوض فى ديـــن الله ، بل يعد جريمة نفسية واجتماعية ولو توهّم أحـــد وجــود هــذا الاضطراب فمرجعه إلى سوء فهمه هو [٢] .

ومن نماذج الآيات التى تؤكد ضــــرورة الربــط بيــن الســبب والنتيجة : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواهــا * قــد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها**﴾ [٣].

وقوله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحســـنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحســـنى * فسنيسره للعسرى** ﴾ [٤] .

فالسياق فى هذه الآيات صارخ فى إظهار الجهد البشرى وفى أن الإنسان صانع مستقبله ، وأنه يتجه دون شائبة إكراه إلى ما يبغـــى ، وليس له أن ينسب سوء عمله إلى القدر .

---

(١) الشعراوى ، مرجع سابق ، صفحات : ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١ .

(٢) الغزالى ، مرجع سابق صـــ ١٠٦ـــ ١٠٩ .

(٣) الشمس : ٧ ــ ١٠ .

(٤) الليل : ٥ ــ ١٠ .

إضافة إلى هذا ، فإن تعريف الحديث النبوى بـــ " الصحيـــح " يعنى ــ بعد اتصال السند بالثقات ــ أن يكون خاليا من الشذوذ والعلة القادحة . ولو كان حديث (سبق الكتاب) كذلـــك ــ أى وقـــع بـــه شذوذ ، أو علة قادحة ، بمعارضـــة القـــرآن أو مصادمـــة العـــدل ، أو أنه لا يفيد إلا الجبر ــ لرددناه [1] .

وعلى هذا الأساس يجب عدم تناول أى نـــص يتعـــارض مـــع صحيح الدين ، قرآنًا وسنة ، أو يتعارض مع اليقين العقلى والنقلى .

من ذلك نص من أحاديث الآحاد [2] . رواه عبد الله بن عمــــرو ابن العاص ، قال : (خرج علينا رسول الله ــ ﷺ ــ وفى يده كتابـــان فقال : أتدرون ما هذان الكتابان ؟ فقلنا : لا يـــا رســـول الله ، إلا أن تخبرنا ؛ فقال للذى فى يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين فيـــه أسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم أبدًا . ثم قال للذى فى شماله : هذا كتـــاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلـــهم ، ثـــم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقـــص منـــهم أبـــدًا) . فقـــال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله ، إن كان أمرٌ قد فُـــرغ منـــه ؟!

---

(١) الغزالى ، مرجع سابق .

(٢) يقرر جمهور الفقهاء أن هذه الاخبار أو الأحاديث ليســت قطعيــة الدلالــة ولا تفيــد إلا العلم الظنى .

فقال ﷺ: **[سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهـــل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهـــل النار ، وإن عمل أى عمل] .**

ـ يقول الشيخ الغزالى ـ معقبًا ـ : " والعبارات الأخيرة ، فى نظرنا ، من أوهام الراوى ، ومخالفتها للكتـــاب والســنن الصحـــاح ظاهرة ، وتوهين راو خالف النقل الثابت ، والعـــدل الســـائغ ، هـــو مسلك أئمة السنة " .

وفى ختام هذا المبحث نهيب بالأساتذة المتخصصين فى تحقيـــق السنة والسيرة وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة ، أن يولـــوا مزيـــدًا من الاهتمام ، لما يرد فى كتب التراث من أخبار أو أحاديث أو كـــلام منسوب إلى السلف ، يرتبط بهذا الموضوع ، لبيان مدى تمشيه مـــع صحيح الدين ، بالمعايير سابقة الذكر ، بل بيان مـــدى صحتـــه مـــن الأساس .

ـ من هذا ما ورد فى (العقد الفريـــد) مـــن أن رجـــلاً قـــال للنبى ﷺ : أيقدر الله على الشر ثم يعذبنى عليه ؟! فقال له النبـــى ﷺ : (نعم وأنت ظالم) [1].

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٢، تقديم وتعليق د . أحمد يسرى الغرباوى ، ط ١ ، القاهرة ، دار الإمام على للطباعة والنشر ، ١٩٩٢ ، ص ٣٦٢ .

ــ وكذلك ما ورد من أن رجلا قال لهشام بن الحكم : أنت تزعــم أن الله ، من فضله وكرمه وعدله ، كلفنا ما لا نطيقه ثم يعذبنا عليـــه ؟ فقال هشام : قد والله فعل . ولكننا لا نستطيع أن نتكلم [١] .

وفى إطار تأكيد علم الله الأزلى السابق ، المحيط بكل شـــىء ، وبكل أعمال العباد ، اللاحقة أو المستقبلية ، سواء أكانت فى دائـــرة التكاليف الشرعية أو خارجها ، نذكر هذه الطائفة من الآيات القرآنيــة الكريمة ذات الصلة .

يقول الله ــ عز وجل ــ : **﴿ وعنده مفــاتح الغيــب لا يعلمــها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط مــن ورقــة إلا يعلمــها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطـــب ولا يــابس إلا فـــى كتـــاب مبين﴾** [٢] .

ــ **﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾** [٣] .

ــ **﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تــزداد وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾** [٤] .

ــ **﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفســكم إلا فـــى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا علــــى ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾** [٥].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٤ . (٢) الأنعام : ٥٩ . (٣) التوبة : ٥١ .
(٤) التوبة : ٥١ . (٥) الرعد : ٨ ــ٩.

المبحث الخامس

(فى ضرورة الأخذ بالأسباب)

إن الإيمان بالقضاء والقدر – على ما سبق بيانه – لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب ؛ فقد اقتضت حكمة الله أن يرتب خروج الأشياء على الأخذ بالأسباب . والمسلم مطالب – ككل الناس – بالأخذ بالأسباب . وليس هذا فحسب ، بل أيضًا مطالب بالرضا التام ، بكل ما تسفر عنه هذه الأسباب من نتائج ؛ لأن المسلم بأخذه بالأسباب وبتوكله على الله يكون قد فوض أمره إلى الله فى هذا الشأن أو هذه القضية .

والنتائج هى بين أن تأتى وفق الأسباب مباشرة وبشكل تقليدى ، أو أن تتجاوز هذا إلى مزيد من النتائج المنتظرة بفضل الله وكرمه ، أو أن تتحسر أو تحجب تمامًا ابتلاءً من الله ، واختبارًا ، أو عقابًا دنيويًا معجلاً . وعلى المسلم أن يكون ملمًّا بكل هذه البدائل المتوقعة ، ثم عليه الرضا بتحقيق أى منها ، ولا يقولن لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن يقول قدّر الله وما شاء فعل . وذلك على العكس من موقف الإنسان غير المؤمن الذى يغتر بعلمه وبالأسباب

حين تصل به إلى النتائج المتوقعة ، أو يصيبه اليأس ، أو الاكتئاب حين لا توصله الأسباب إلى النتائج المتوقعة ، وربما أقدم على الانتحار !

ويعنى هذا أيضًا أن المؤمن فى تحدٍّ دائم مع الشيطان ، وأن عليه ألا يفتح للشيطان باب الوسوسة إليه . أو طريق إفساد حياته . يقول المصطفى ﷺ : **[احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا ، كان كذا وكذا . ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان]** [1] .

ولعلك تلاحظ أن قوله ﷺ : **[احرص على ما ينفعك]** لا يعنى أكثر من الأمر بالأخذ بالأسباب وليس المؤمن مطالبًا بعد ذلك إلا بالتوكل على الله محسنًا الظن به ، بعيدًا عن القلق والتوتر الذى يعيشه الآخرون فى مرحلة انتظار النتائج .

أضف إلى هذا أن المؤمن يتمتع بثقة فى الله وثقة فى نفسه يفتقدها غيره ؛ وهذا يكسبه اطمئنانًا لقضاء الله وقدره ، فهو يحسن الظن دائمًا بالله ، ولا يتوقع منه ـ عز وجل ـ إلا خيرًا ، ومبعث هذا الاطمئنان الذى يتمتع به المؤمن أيضًا علمه بأن الناس جميعًا

(١) رواه مسلم . رياض الصالحين ، باب المجاهدة .

لو اجتمعوا على أن يضروه بشىء أو ينفعوه بآخر لن يتحقق لهم ذلك ، إلا فى حدود ما قدره الله لهذا الإنسان أو عليه ، وبذا فهو يتعامل أولاً وأخيرًا مع ربه :

وفى الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى ، يقول ابن عباس رضى الله عنهما : كنت خلف النبى ﷺ يومًا فقال : **[يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء ، لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف]** (١) .

ونختم هذا المبحث بما روى عن عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ مؤكدًا مسئولية المؤمن عن الاختيار ، واتخاذ القرار بين البدائل المختلفة التى أتاحها أمامه رب العزة ، وأن الإنسان فى كل الأحوال باختياره شيئًا ، وتركه آخر يكون داخلاً فى علم الله الأزلى والذى دونه الله فى كتاب ذلك الإنسان ، وهو ما اصطلح على تعريفه بسبق علم الله أو (سبق الكتاب) .

روى مسلم أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام مع بعض الصحابة حتى إذا كان بإحدى قرى الشام لقيه أبو عبيدة بن الجراح

(١) المرجع السابق ، باب المراقبة .

وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء وقع بالشام ، فنادى عمر فى الناس أنه راجع إلى المدينة فى الصباح ، فقال له أبو عبيدة : أفرارًا من قـــدر الله ؟! فقال عمر متعجبًا : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر مـــن قدر الله إلى قدر الله [1] .

فعمر رضى الله عنه يعلم أن كـــل شـــىء مكتـــوب فـــى كتـــاب الإنسان ، أو فى علم الله — عز وجل — من قبيل سبق العلم فحسب ، وليس من سبيل الجبر ، فالإنسان حر فى اختيـــار أى مـــن البدائـــل المتاحة ، وهو يأخذ بالحيطة والحذر ، وإعمـــال العقـــل فـــى هـــذا الاختيار ، وإلى جانب كل هذا قد يكون دعاؤه وصلاحه من أســـباب توفيق الله إياه ، والانتقال به من قدر إلى قدر أكثر لطفًا ورحمة .

* * *

---

(١) محمد الأنور عيسى ، مرجع سابق ، ص ١١٠ .

المبحث السادس

" التكذيب بالقدر " من الكبائر

ـ عدَّ الإمام الحافظ شمس الدين الذهبي ، التكذيب بالقدر ، واحداً من كبائر الذنوب والمعاصي ، في الإسلام ، وذكر حديثًا لرسول الله ﷺ في المكذبين بالقدر يقول فيه : **[والذى نفسى بيده لو أن لأحدهم مثل جبل أُحد ذهبًا فأنفقه فى سبيل الله ما قبل منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره]** . واعتبرهم ﷺ مجوس أمته [(1)] .

ـ وقد ورد أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : **[إن أول ما خلق الله سبحانه القلم ، قال له : اكتب . قال : ربِّ وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة]** .

ثم قال ﷺ : **[من مات على غير هذا فليس منِّى]** [(2)] .

---

(1) شمس الدين الذهبى ، كتاب الكبائر ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، د . ت ، ص ١٥٣ـ١٥٨ .

(2) الاعتقاد للبيهقى ، ص ٥٦ ، عن : محمد الأنور عيسى ، مرجع سابق ، ص : ١٠٤ .

ونحن لا نسقط هذه الأحاديث على الذين أخطأوا في حق القدر ، أو تطاولوا عليه ، والذين ستشير إليهم الدراسة في فصلها التطبيقى ، لأن هؤلاء جميعًا من العرب والمسلمين ، من المؤمنين بالقدر ، وليسوا من المكذبين به أو المخطئين فيه ، وحين نبين لأحدهم خطأه ، فسرعان ما يقلع عنه ، وما أخطاؤهم هذه في حق القدر ، إلا لعدم درايتهم ، أو قلة إحاطتهم بمعنى القدر ، وعلاقته القوية ببنية عقيدة المسلم وإيمانه .

وإنما نقصد بالإشارة إلى كبيرة التكذيب بالقدر هنا بيان خطورة الأمر الذى لو تمادينا فيه لكنا من المكذبين ، ثم لا يشفع لنا بعد التمادى فى الخطأ جهلنا أو عدم درايتنا ؛ فالجهل بالشرع والقانون لا يشفع للجاهلين ، ولا يعفيهم من عقوبة الخروج على مقتضى أى منهما .

* * *

المبحث السابع

" لن ينجو أحدٌ منكم بعمله "

إن كل ما سبق بيانه ، كان متعلقًا بمسئولية الإنسان عن اختيـاره بين طريقى الهدى والضلال ، وضرورة مساءلته فى يوم الحساب ، ومكافأته أو عقابه لا يتعارض مع ما نعرفه عن رحمة الله التى يتغمدنا بها ، ويدخلنا بها الجنة كرمًا وتفضلاً على أساس أن جملة أعمال الخير والطاعات التى يؤديها الإنسان لا تكافئ واحدة من نعم الله المتعددة التى يكون قد تمتع بها الإنسان فى دنياه ، وعلى أساس أن جملة هذه العبادات لم تكن أكثر من مجرد بعض الشكر الذى يستحقُّه الله ـ عز وجل ـ الأمر الذى يُبنى عليه ، أن دخول الجنة لن يكون بسبب تلك الطاعات ، وإنما يكون تفضلاً وتكرمًا من الله على أهل الطاعات الذين عرفوا ، أو قرروا نعم الله عليهم ، وكانوا من الشاكرين .

وإن سأل سائل : فما جدوى الحساب إذن ؟ فالجواب واضح : تكون المساءلة والحساب لتخليص أهل الطاعات من أهل المعاصى بداية ليتجه الأولون إلى الجنة ويتجه الآخرون إلى النار . ثم يكون

التنسيق الداخلى بين أهل الطاعات لبيـــان التفـــاوت الحـــاصل بيـــن درجاتهم ، والذى على أساسه سيتبوأ كل منهم منزلته فى الجنة .

فدخول الجنة لأهل الطاعة يكـــون أولاً برحمـــة الله ، وتتحـــدد منازلهم فيها ــ تاليًا ــ على أقدار التزامهم بطاعة الله ، أو مقـــادير شكرهم لنعم الله ــ فى الدنيا ــ .

ــ فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **[قاربوا وسددوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله . قـــالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمـــة منه وفضل]** [1] " رواه مسلم " .

فإن على الإنسان إذن أن يسعى ليكـــون أهـــلاً لأن يتغمـــده الله برحمته .

أى عليه أن يكون من المحسنين الذين تقترب منـــهم رحمـــة الله وتسعهم .

يقول الله ــ عـــز وجـــل ــ : **﴿ إن رحمـــة الله قريـــب مـــن المحسنين ﴾** [2] . فمن أحسن ــ بإرادته واختياره ــ اقـــتربت منـــه رحمة الله .

---

(١) رياض الصالحين باب الاستقامة .

(٢) الأعراف : ٥٦ .

بل إن الله قد بيّن فئات البشر ، الذين ستُكتب لـــهم رحمـــة الله ، دون غيرهم ، حيث إنه يقـــول : **﴿ ورحمتـــى وســـعت كـــل شـــىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنـــون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى . . . ﴾** [1] .

وهكذا ، نجد رحمة الله تتجه بقدر معلوم ، وحكمة بالغـــة تجـــاه مستحقيها ، وكذلك يكون شأن عقابه ـــ عز وجل ـــ للمنكرين الذيـــن لم يكونوا أهلاً لرحمة الله ، وأخرجوا أنفسهم مـــن دائـــرة الرحمـــة والجنة إلى دائرة غضب الله والنار ، حين لم يؤمنوا ولم يشـــكروا ، بل كفروا وأنكروا .

يقول الله ـــ تعالى ـــ : **﴿ مـــا يفعـــل الله بعذابكـــم إن شـــكرتم وآمنتم ﴾** [2] . أى ما كان الله ليعذبكم ، ولم يكن بحاجة لتعذيبكم ، لـــو أنكم آمنتم به ، وشكرتم نعمه ، لكنكم لم تفعلوا فحق عليكم العذاب .

وكذلك سيكون شأن العصاة من المؤمنين ، أولئك الذين خلطـــوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، وأمْرُهم مُرْجَأً إلى كلمة الله فيهم [3] ، يـــوم القيامة إن شاء غفر لهم ، وإن شاء عذبهم ، ولن تتجه مشيئته ـــ عـــزَّ وجل ـــ إلى أى من هذين الاتجاهين إلا لحكمة . ولـــذا كـــان علـــى

---

(١) الأعراف : ١٥٦ـ١٥٧ .

(٢) النساء : ١٤٧ .

(٣) قضاؤه وحكمه .. مراجعه .

الإنسان ألا يركن إلى ذلك الأمل فـــى المغفــرة لأنـــها لـــن تكـــون إلا لأهلها ، فليأخذ الإنســـــان بـــالأحوط ، وليكـــن مـــن المؤمنيـــن الشاكرين ، وليس من المنكرين الكـــافرين ، أو العصـــاة المذبذبيـــن أو الجامعين بين الطاعـــة والمعصيـــة . عليـــه ألا يـــأمن مكـــر الله ولا يركن إلى عمله القليل ، فيفاجأ بأن عمله القليل هذا لـــم يؤهلـــه للتمتع برحمة الله ، أو لنيل درجة عليا فى الجنة .

بل إن المؤمن التقى الورع ، يجب ألا يغتر بصالح عمله ، حتـى لو وطئت إحدى قدميه عتبة الجنة . وكما أثر عن أبى بكر الصديـــق ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : (**لا آمن مكر الله ولو كـــانت إحـــدى قدمى فى الجنة**) .

كذلك فإن المؤمن الكيس الفطن اللبيب ، يحرص على أن يكـــون من الفائزين فى الدنيا والآخرة ، أى من أصحاب الحُسنَيين ، ويتمثـــل الدعاء القرآنى الجامع : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفـــى الآخـــرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ [1] .

وختامًا ، فإن الحظ العظيم الذى هو حـــظ المؤمنيـــن العـــاملين الشاكرين ، يتمثل فى ثواب الأعمال الصالحة ، وثواب الصبر علـــى

---

(١) البقرة : ٢٠١ .

طاعة الله ، وابتلائه ، ثم فى رحمة الله ، وشفاعة نبيه اللتين نرجـــو أن نكون من أهلهما .

يقول الله ــ تعالى ــ : **﴿ وما يُلقاها إلا الذين صبروا وما يُلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾** [1] .

---

(١) فصلت : ٣٥



الفصل الثالث

(نماذج واقعية)

للأساليب والتعبيرات المسيئة للقدر

(فى المصنّفات الفنية)

الفصل الثالث

(نماذج واقعية)

للأساليب والتعبيرات المسيئة للقدر

(فى المصنفات الفنية)

أبرزت النماذج الواقعية ، التى تعرضها هذه الدراسة ، ثلاثة مداخل لعلاقة الناس بالقدر بناء على مفهومهم عنه :

ـ ففى المدخل الأول :

نجد بعضهم يؤمن بالقدر مقصودا به إرادة الله جملة ، وقسمته أو إرادته التى يجب الرضا بها ، ويسندون وقوع هذا القدر إلى الله ـ عز وجل ـ وبالتالى فهذه الفئة من الناس تجل القدر ولا تسىء إليه ولا تتبرم به ، وهذه الفئة تمثلها نماذج قليلة فى الأعمال التى شملتها الدراسة .

ـ وفى المدخل الثانى :

نجد البعض يستخدم لفظ القدر مجـــازًا ، ويقصـــد بـــه إرادتـــه الشخصية ، ومسئوليته عن اختياره ، وبالتالى فـــهو حينمـــا يتـــبرم بما وقع ، وبسبب قراره هو أو اختياره ، فلا تنصب إساءته ، أو سبه إلا على ذاته هو أو قراره ، وإن اســـتخدم لفـــظ القـــدر ، ويُنْـــدَبُ أو يفضل لمثل هؤلاء أن يتخلوا عن استخدام كلمة القدر فى مثل هـــذا السياق ، ويلتزموا الدقة فى التعبير . وهذه الفئة تمثلها نمـــاذج قليلـــة أيضًا فى الأعمال التى شملتها الدراسة .

ـ وفى المدخل الثالث :

نجد الغالبية من الناس (فى النماذج موضوع الدراسة) تســتخدم لفظ القدر ، مقصودًا بها إرادة الله ، أو تصاريف الدهر، أو الزمـــان ، ولا تتورع عن الإساءة إلى القدر فى كل محنـــة يمـــرون بـــها دون إدراك لخطورة هذا المسلك ونيله من الـــذات الإلهيـــة التـــى تقـــدر الأقدار ، وتصرف أحوال الزمان وتقلبات الدهر . ولقد ورد فى أكـثر من حديث نبوى ، وحديث قدسى كذلك ، ما ينهى عن سب الدهـــر ، لأن الدهر هو الله [1] ، باعتبار أن تصاريف هذا الدهر إنما تتم بيـــد الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أى أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الدهر ومصرف فترات الزمان .. مراجعه .

وبرغم كل هذا ، فإننا نجد هذه الفئة من الناس ، سريعة الخطـأ والسب والتطاول على الأقدار ، وتـروح تتهمـها بألفـاظ جارحـة لا يليق أبدًا أن تُوَجَّه إلى القدر ، أو الدهر .

وفيما يلى نماذج فجة وصارخة فـى خطئـها فـى حـق الله ، والقدر ، والدهر :

١ ــ " قدر أحمق الخطى " :

تتردد هذه العبارة القبيحة ضمن كلمات أغنيـة لمطـرب كبـير تعلقت به ــ ولا تزال ــ قلوب الملايين من شبابنا وفتياتنا ، فصـاروا جميعًا يأخذون عنه كل ما يقول دون مراجعة ، فيرسخ فى وجدانـهم ويرددونه وهم واهمون بصحته . وليس أقبح من أن يردد هؤلاء مثل هذه العبارة المنطوية على خطأ بيِّن وجسيم فـى حـق الله والقـدر والدهر [1] خاصة وأنها قد وردت على لسـانه فـى سـياق قصـة ميلودرامية قست عليه فيها مجريات حياته العاطفية والاجتماعيـة ، فما كان منه إلا أن تطاول علـى القـدر ، وسـبه بـهذه العبـارة ، وما أيسره على كل محب لهذا المطرب أن يحاكيه فى هذا المسـلك ، فيسب القدر والدهر كلما مرت به ضائقة .

---

(١) فإنما هو خطأ عقدى .. مراجعة .

لذا فنحن نرجو أن يسارع المسئولون عن أجهزة الإذاعة والتليفزيون والسينما بتنقية الأغنية التى وردت بها هذه العبارة ، من هذا السب الصريح فى حق الله عز وجل .

٢ـ " القدر الأعمى " :

فى إحدى حلقات مسلسل تليفزيونى سئمت فيه سيدة شابة ذات مستوى حياتىّ [١]. متميز من ملاحقات سيدة أخرى ، ذات مستوى وضيع . قالت : (وحنفضل مستسلمين لواحدة زى دى تلاحقنا زى القدر الأعمى) . لقد كانتا فى سجال كيدى تآمرى تولد عنه حقد كبير ، لدى السيدة الثانية ، وقد قابلته الأولى بنفور واشمئزاز ، فما دخل القدر فيما جرى بينهما ، حتى تتطاول إحداهما عليه وتتهمه بالعمى ؟!

٣ـ " القدر المشئوم " :

فى الحديث عن أزمة انفصال جنوب اليمن ، وأزمة غزو الكويت جاء فى افتتاحية إحدى الصحف بتاريخ ١٩٩٤/٥/٢٣) :
" والشيء الواضح الآن هو أن هناك انقساما عربيا لم يظهر إلى الوجود بعد فيما يتعلق بالأزمة الأخيرة ، ولن يكون من السهل

---

(١) حيوى .. فى نسبته إلى الحياة .. مرشد الأريب معجم عربى للخياري مراجعه .

مثل هذا الانقسام ، إذن فالعالم العربى قد يجد نفسه مرة أخرى أمـــام أزمة كبرى طاحنة وقدر آخر مشئوم " . ونحن نتساءل : مـــا ذنــب القدر ، فى فتنة سياسية ، أحدثتها فلول الماركسية ، فى اليمن حتـــى نحمله مسئولية تحررها هناك ، ما ذنـــب القــدر ، فــى التصــرف السياسى الغريب الذى أقدم عليه الرئيس العراقـــى الســابق بغــزوه الكويت ، وإنزاله بالأمة العربية ، أزمة طاحنة كبرى مزقت بنيتــها ، ولا شك أن كاتب تلك المقالة الافتتاحية يقصد فيما بين السطور بكلمة (آخر) ، قدراً مشئومًا سبق هذا (الآخر) وهـــو غــزو العــراق للكويت .

هذا ، وليس فى الإسلام تشاؤم أو تطير بالأشياء والأحداث .

٤ـــ " القدر الغادر " :

فى حديث لإحـــدى مقدمـــات برنـــامج إذاعـــى أذيـــع بتـــاريخ ١٩٩٣/٩/٢٤م ردت على رسالة وردت من امـــرأة تشـــكو خيانـــة زوجها ، الذى له منها ثلاث أطفال ، وبرغم أمانتها وتدينها ، لم يكـــن هو أمينا معها ، بل خانها ، ثم ـــ هى برغم ذلك ـــ لا تريد الانفصال عنه حرصًا على مصلحة الأولاد ، وجاء فى الرد من جـــانب تلـــك المذيعة علـــى صاحبـــة الرســـالة ، أن عليـــها ضـــرورة الصـــبر والتحمل والرضوخ للقدر الغادر .

ونحن نتساءل : هل الذى خان وغدر ولم يحفظ العشرة هنا هـو القدر ؟! أم هو الزوج الخائن الغادر .. وأيهما يستحق المساءلة عـن الغدر والخيانة ؟

٥ ــ " القدر خصم عنيد " :

يحكى أحد الأفلام السينمائية قصة محام شاب انتـهازى أحـب امرأة قاتلة ــ كانت قد وكلته فى الدفاع عنها ــ وأراد أن يستغل نفوذ خاله فى تحقيق مآربه الانتهازية بالزواج من هـذه الموكلـة القاتلـة لكن واجهته صعوبات متعددة فى مشوار زواجه هذا ، فجـاء علـى لسانه : (القدر ده خصم عنيد) .

وتعليقنا : مَنْ يكون هذا المحامى الانتهازى حتى يتخذ من القـدر خصما له ؟! ثم إن تعاقب فشل [١] . مخططاته الوصولية الانتهازيـة هى النتيجة المنطقية لمشوار الانتهازيين ، من غير اختلاق خصومـة مع القدر أو اتهامه بالعناد ، والمؤمن لا يتوقع غير هـذا فـى حـق الانتهازيين ، أما الانتهازى الغـافل عـن مشـيئة الله ، وإرادتـه ، فلا يكون منه إلا التطاول على الله وقدره ومشيئته .

---

(١) هو إخفاق .. مراجعه .

٦ـ " عبث الأقدار " :

هذا هو عنـــوان إحـــدى الروايـــات ، وعندمـــا تقـــرر إنتـــاج مسلسل تليفزيونى ، مأخوذ عن قصة هذه الرواية ، اختير له عنـــوان (الأقدار) مراعاة ــ فيما يبدو ــ لمشاعر ملايين المشاهدين الذيـــن سيقتحم التليفزيون بيوتهم ، ولن يقبلوا أن يوصف القدر ، بهذه الصفة الشائنة القبيحة ــ العبث ــ ويؤكد هذا أنه حينمـــا صـــور برنـــامج تليفزيونى حلقة من كواليس العمل فى المسلسل المذكور وجـــاء فـــى تقديم المذيعة أن هذا المسلسل مأخوذ عن رواية (عبـــث الأقـــدار) حذفت رقابة التليفزيون كلمة (عبث) من كلام المذيعة وكان واضحا ذلك الإسقاط الصوتى من كلامها ، لكن فات الرقابة أن تحذفها حينمـــا وردت فى كلام أحد أبطال المسلســـل ، فـــى حـــواره مـــع مذيعـــة البرنامج ، وكذا فى تنويه إحدى الصحف عن البرنامج المذكور يـــوم إذاعته (٢/١٠/٢٠٠٠) ذكرت عبارة (عبث الأقدار) فى إشـــارتها إلى الفقرات التى يتضمنها البرنامج .

٧ـ " سخريات القدر " [١] :

هذه من أشهر العبارات ، الجارية على الألسن ، فى غير سـياقها

---

(١) وكذا سخرية ironie من المستورد من الكتابات الأجنبية ، الفرنسية مثـلا ironie .. المعجم الفرنسى للخيارى .. مراجعه .

والمنطوية أيضًا على النيل من القدر ، أو الجرأة عليه ، مثــلا : برغم اعتلال ، وعدم منطقية اســتمرار العلاقــة بيــن بطــل أحــد المسلسلات التليفزيونية ، ومطلقته ، وبرغم ما شهدته تلك العلاقــة ، من تقلبات عنيفة بسبب اختلال البنية النفسية لتلك المطلقــة ونتيجــة للمزاج غير السوى لمطلقها ــ فى علاقاته بالنساء ــ نجد ذلك الرجل يصف هذه العلاقة ، فى إحدى حلقات الجزء الثالث مــن المسلســل بأنها من سخريات القدر !

وكذلك برغم اضطراب علاقة نجل ذلك الرجل بفتاة فاقدة لأيــة رؤية أو توجه حياتىّ واضح ، وما كانت تسفر عنه هذه العلاقة مــن مواجهات بين هذا الابن ، وبين شخص آخر قريــب لتلــك الفتــاة ، أقول برغم هذا نجد ذلك الابن فى حلقة أخرى من حلقات المسلســل نفسه ينسب تلك المواجهات إلى القدر ، وهو يقول : " القــدر دايمــا يضعنى فى نقاط تصادم مع قريب تلك الفتــاة برغــم عــدم وجــود خلافات موضوعية معه " وذلك دون أن يراجع هو نفسه ، وأســباب اهتزاز شخصيته ، واهتزاز شخصية حبيبته ، وما ينجم عن كل هــذا من اهتزاز لعلاقتهما .

٨ ــ " الحب أقوى من القدر " :

فى فيلم سينمائى آخر أحب البطل أخت زوجته ، وهو لا يعلــم صلتها بزوجته ، وبعدما اكتشف ذلك أصر على استمرار علاقته بــها

باسم الحب الذى اعتبره هو كما جاء على لسانه فى الحوار " أقــوى من القدر .. أقوى من كل شىء " لكنــها رفضــت اســتمرار هــذه العلاقة الآثمة .

٩ ــ " لا لانتصار القدر علينا " :

فى فيلم سينمائى رابع يعالج الجريمة يقول البطل لممثلة أمامــه : (ما تدّيش القدر فرصة ينتصر عليك ، زى ما عمل معايا) ، وكــان قد اتهّم فى قضية قتْل لفقها له ، أو أوقعه فيها أعداؤه .

ثم فى فيلم خامس نسمع الوالد يقول : (حــاموت وأنــا مــش عارف مصير بنتى الوحيدة ، هــل انتصــر عليــها القــدر ، وأذل كبرياءها ، أم ..) ونسى أنه لــو كــان مــن الذيــن يتقــون الله ، ويحرصون على كلمة الحق لحفظ الله ابنته بعد وفاته ، إكرامًــا لــه ولتقواه . يقول الله عز وجل : **﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفــهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدًا ﴾** [١] .

وكذلك نسى ذلك الأب أنه لو كان صالحًا [٢] لحفظ الله أبناءه من بعده ، حتى يبلغوا أشدهم ويتمتعوا بما ترك لهم .

---

(١) النساء : ٩ .

(٢) بل قل المؤلف .. ثم من عمل معه .. مراجعه .

يقول الله ــ عز وجل ــ **﴿ وكان أبوهما صالحًا فأراد ربــك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾** [1] .

١٠ ــ " نحن نتحدى القدر ! ونملى إرادتنا عليه " :

فى إحدى الأغنيات يقول المطرب : (إنتِ وأنــا قلبيــن علــى غُصنَىْ شجر .. الريح معنداهم ٠٠٠ حالف ليتحدَّى القدر) .

وكذلك يعلن مطرب آخر مثل ذلك التحدى فيقول : (لا حَسَــلِّم بالمكتوب .. ولا حارضى أبات مغلوب) .

ولم يكن نابليون أقل شجاعة ، أو قدرة على تحدى القدر ، مــن هذا المطرب أو ذاك ، فنراه يقول لحبيبته بعــد أحــد انتصاراتــه : (أخبرتك أننى سأفرض إرادتى على القدر) . وذلك فى إحدى حلقــات مسلسل (نابليون وجوزفين) .

وانظر معى أيها القارئ الكريم أى رجل هذا الذى وفّى بعــهده ، بفرض إرادته على القدر ــ كما يدّعى ــ وانظر إلى أيــة امــرأة ، يوجه كلامه هذا ! إن هذا الرجل ، وهذه المرأة هما ثنــائى العشــق والخيانة ، الثنائى الشهير . إنهما الثنائى الذى قيل عنــه ــ بحــق ــ المقولة المشهورة :(ما أعظم ما أحبّها نابليون ، وما أكثر ما خانته) .

---

(١) الكهف : ٨٢ .

إنه الرجل ــ نابليون ــ الذى اعترف مراراً قائلاً : (غــــزوت العالم وفشلت فى أن أغزو قلب امرأة) . فنجده حين يتملّق حبيبتـــه ، ويريد منها أن تفتح له قلبها ، أو تتقبله ، لا يجد شيئًا يسوقه بين يديها إلا تطاوله على القدر ! .

١١ ــ هل " القدر مسرف " ؟ :

فى أحد الأفلام السينمائية ــ أيضـًــا ــ كـــان البطـــل ــ كاتبًــا أو روائيًا ــ يعيش قصة حب مع إحدى المعجبات بكتاباته ، وكـــانت تتجاوز كثيرًا فى التجاوب معه بممارسات خاطئة حتى نــــال منـــها ونالت منه باسم علاقتهما العاطفية (الحب .. !) ، فـــهى إذن التـــى قدمت نفسها إليه ، سهلة ميسرة باسم الحب الذى يعيشانه ، وأصبحـــا آثمين فى علاقتهما هذه .. وبرغم هذا ينسبان ممارساتهما هذه إلـــى القدر ! بل ويثنيان عليه ؛ أنْ أتاح لهما كل هذا التجاوز فى علاقتـــهما الآثمة غير الشرعية فيقول لها : (وكان القدر كريمًا معنا إلى حـــد الإسراف) عجبى ! .

١٢ ــ لعبـــة القـــدر :

فى فيلم سينمائى آخر كانت القصة اجتماعية رومانسية ، تنطوى على العديد من الانحناءات أو الالتواءات فى بنيتها الدرامية ، والعديد

من التوليفات السينمائية المصطنعة ، لسنا بصدد تناولها نقديًا ، لكـــن الذى نأخذه على صانعيها نسبتهم إياها إلى القدر بصورة فجة علـــى ألسنة الأبطال ، فتقول البطلة للبطل : (إنت اللى قلت للقـــدر يلعـــب اللعبة دى) . وبعد التئام الشمل بينهما يقول لها : (القدر لعب علينـــا إحنا الثلاثة ، ثم يضحك كثيرًا فتســألـه : مـــمَّ يضحـــك ؟ فيجيـــب : (أضحك من سخرية القدر) .

وهكذا لم يكتف هؤلاء بأن يجعلوا من القدر لاعبًا ، بل يرونـــه كثير اللعب عليهم .

وكذلك فى فيلم آخر ترد عبارة (لولا القدر لعب لعبته) علـــى لسان أحد الممثلين .

وفى إحدى أغنياته يقول أحد المطربين : (وتبقى أحلامنا لعبـــة فى إيد القدر) .

١٣ ــ هل " القدر يعمل على إفساد العلاقات الاجتماعية " ؟ :

فى إحدى حلقات مسلسل تليفزيونى تلعب فتاة حديثة السن ، قليلة الخبرة دورًا لإصلاح ما بين زوجة ــ هى جارتها ــ وبين زوج هذه الجارة ، فإذا بالزوج الكبير فى السن جـــدًا بالنســـبة لـــهذه الفتـــاة ، والمتزوج مرتين سابقتين ، ولديه العديد من الأولاد يقع فى حب هـــذه الفتاة ، وفى حديثه إليها عن مبررات وقوعه فـــى حبـــها ، يقـــول :

(شوفى القدر مرتب لينا إيه .. مرتب لينا إنك [تحاولى] تصلحينى مع زوجتى [علشان أقع] أنا فى حبك .. وما أقدرش أستغنى عنك) !

١٤ ــ هل " القدر هادم للأحلام " ؟ :

فى مسلسل تليفزيونى مشهور تنشأ قصة حب بين إحدى سيدات الأسر العريقة ، الأرستقراطية ذات المستوى الرفيع ، وبين طبيب الأسرة الشاب ، ويبدو أنها لم تكن تتوقع استمرارًا أو نجاحًا لهذا الحب بسبب الفارق بينهما فى السن وفى المستوى الاجتماعى ، فقالت له متحدثة قلقة عن أحلامهما ، وترتيباتهما المستقبلية : (احتمال القدر يضحك ضحكة كبيرة عريضة ويهدم لنا كل أحلامنا) .

١٥ ــ هل " يد القدر غليظة ثقيلة على العاشقين " ؟ :

فى التقديم لمسرحية (باولو وفر أنتشيكا) المترجمة فى سلسلة المسرح العالمى . قال المترجم عن هذه المسرحية : (.. إلا أنها عندما عرضت لأول مرة فى نيويورك شعر الناس بأن يد القدر قاصمة غليظة ثقيلة على يد العاشقين) سامح الله ذلك المترجم ، فقد

تحدث بلسان مشاعر غيره ــ الناس فى مدينة نيويورك ــ ونسب إلى ذلك اللسان ما لم يجر عليه فى حق الله وقدره .

١٦ ــ هل " القدر يرتب للعشاق سهرهم على الكأس والسمر " ؟ :

فى إحدى أغنيات مطرب كبير شدا بما يسىء إلى القدر ، الــذى لا دخل له فيما جمع بين العشيقين ، وما سقطا فيه من هوىً فاســد ، مضمونه (الكأس والسمر) فيقول : ... وهوانــا قـــدر

١٧ ــ هل " القدر يحاصرنا ونضيق به وليتنا ننساه " ؟ :

فى ديوان لأحد شعراء التفعيلة المحدثين نقرأ :

سئمت الحياة وعفت العمر

وأنكرت مر القضاء والقدر

وفى إحدى أغنيات مطرب لبنانى يدعو حبيبته عشرات المــرات إلى نسيان القدر قائلاً : (ندوس على الهموم ، علشان ننسى القدر) .

وهكذا نجد القضاء والقدر بين منكرٍ له وداعٍ إلى نسيانه .

١٨ ــ هل " نحن أحرص على أبنائنا من القدر " ؟ :

فى حديثه عن موقف مصر من معاهدة عدم انتشـــار الأســلحة النووية كتب أحد كبار الصحفيين بتـــاريخ ١٠/٤/١٩٩٥م : (وفـــى

النهاية تبقى كلمة سوف تذكر الأجيال القادمة بكل فخــــر ــ مصـــر عام ١٩٩٥م ــ التى أبت أن تترك تلك الأجيال للقــــدر ..) . فـــهو لا يرى القدر أهلاً لمهمة المحافظة على الأجيــــال القادمــة ، أو أن القدر سيضيع هذه الأجيال .

١٩ ــ متى نكف عن مساءلة الله عن قدره ؟ :

يتساءل أحد كبار الشعراء فى باب : الثقافة بـــإحدى الصحــف بتاريخ ٢٠/١٠/١٩٩١م) قائلاً :

لِمَ نأتى الحياة دون اختيـــار غير ماضى قضائك المكنـــون

ثم نحيا مخيرين ، ولكـــــن كاختيار السجين قيد السجيـــن

وتشدو مطربة كبيرة :

لبست ثوب العيش لم أُستشـــر

وحرت فيه بين شتى الفكـــر

وسوف أنضو الثوب عنى ولم

أدرك لماذا جئت ؟ أين المفر !

هبوا املأوا كأس المنــــــــى

قبل أن تملأ كأس العمر كف القدر

ويشدو موسيقار كبير : جايين الدنيا ما نعرف ليه .

ويغنى مطرب آخر : جئت لا أعرف من أين .. إلخ .

كل هذا وغيره الكثير ، برغم أن القضية التي تطرحها هذه التساؤلات قد حسمها الفكر الإسلامي ، وأجاب عن أسئلتها الفرعية كافة : لماذا خلق الله الإنسان ، وما رسالته على الأرض وغاية هذه الرسالة وضوابط أدائها .. إلخ .

فلماذا يصادر ذلك الشاعر المرموق حرية الإنسان ؟ ولماذا يبطل إرادته ؟ ويرى أنه لا جدوى من هذه الحرية ، بل ويعتبر الإنسان سجينًا فى كل الأحوال ، وأن حريته ليست إلا فى اختياره قيده ، بينما مدى الحرية التى يتمتع بها الإنسان ــ كما قرر الإسلام ــ كفيل بأن يذهب بهذا الإنسان إلى أعلى درجات الجنة ، أو يهبط به إلى أدنى دركات النار ، وليس لله عز وجل ــ كما قرر هو ذاته ــ إلا مجرد سبق العلم بما سيختاره كل منا دون أن يملى ــ سبحانه ــ على أى منا اختياراً ، وذلك بالطبع فى دائرة التكليفات الشرعية فحسب كما سبق شرحه .

ثم ــ أيضًا ــ لماذا يحار صاحب الرباعيات ــ التى تغنيها تلك المطربة الكبيرة ــ كل هذه الحيرة بين شتى الفكر فى مبررات حياته ولبسه ثوب العيش ، وهو يعلم أن رسالة الإنسان على ظهر الأرض ، لها غاية محددة وهى ذات مستوى رفيع يفخر به كل مسلم ويعتز بإدراكه .

وإذا كان مجيئنا إلى الحياة قد تـم دون استشـارة ، كمـا قـال صاحب الرباعيات ، أو دون اختيار كما قال ذلك الشاعر ، فلا شـك أنه مجيء كريم ، له غاية يشرف بها كل إنسان ألا وهى أن يكـون خليفة لله فى عمارة الأرض ، مُسخَّرةً له كل المخلوقات ، وهو مكرم فى البر والبحر ، ومرزوق من الطيبات ، وأن يكون الإنسان خليفـة لله ، فهذا تكليف من الله يشرف به الإنسان لسمو قدره فـوق أقـدار سائر التكليفات ، بل هو مجمع هذه التكليفات .

٢٠ ــ هل " القدر مراوغ ؟ " :

يقول شاعر آخر :

عيناك طائران ليليّان

توقفا على القمـر

من بعد رحلة طويلة السفر

مراوغان كالقـدر

هل يتصور أن الله مراوغ ، أو مماطل ، أو مسوّف فى علاقاتـه بنا أو بأى من بقية العوالم التى أحكم هو صنعها ، وتسييرها وتقديـر أقدارها ؟

وهو الذى قال عن نفسه ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول لـه كن فيكون** ﴾ [1] .

(١) يـس : ٨٢ .

فأى حسم للأمور ، وأى مضاء فـــى تنفيذهـــا بعـــد حســـم الله ومضائه .

٢١ ــ هل " القدر تدبير وإحكام وتقدير ؟ أم محض صدف " ؟ :

وعلى النقيض من كل ما عرضناه فى التأصيل الشرعى لمعنـــى القدر وضرورة الإيمان به ، والثقة فى حكمة الله وتدبيره وتقديـــره ، وأن الله قد خلق كل شيء بقدر ، يأتى الحوار بين أحد أبـــرز نجـــوم الحياة الفنية ونظيرته فى أحد أفلامهما ، قبل غنائه أغنيته المشهورة :

ــ هى : هل لقاؤك هذا أيضا صدفة ؟

ــ هو : تقدرى تقولى لى إيه فى الدنيا دى مش صدفة ؟

إحنا جينا الحياة دى صدفة ، و .. صدفة ، و .. صدفة) .

إلى آخر ما يؤكد ويرسخ معنى العبثية والعشوائية ، وينفـــى أى معنى لقدر الله المحكم ، البعيد تماما عن الصدف والعشوائية .

٢٢ ــ هل لابد أن يستجب القدر ؟!

الصحيح فى عقيدتنا الإسلامية ، أنه مهما كان أخذنا بالأســـباب فى قضية ما فلا يعنى ذلك بالضرورة أن تتحقـــق الاســـتجابة كمـــا يرجوها العبد فربما كان عدم تحققـــها لحكمـــة لا يعلمـــها إلا الله ،

وقد يكون ذلك اختباراً من الله لعبده ، أيصبر أم يكفـــر ، والمؤمـــن مطالب ــ فحسب ــ بالأخذ بالأسباب وإحسان الظـــن بـــالله وتقبـــل النتيجة مثنيًا على ربه بقوله (قدَّر الله وما شاء فعل) .

وليس له أن يطالب ربه بضرورة الاستجابة أو حتميتها ، لدرجة قول أحد الشعراء : (إذا الشـــعب يومًـــا أراد الحيـــاة .. فلابـــد أن يستجيب القدر) ؛ لأن هذا يخرج على حدود اللياقة فى التعامل مـــع الله وقدره وإن أخذ شيطانُ الشعر وحماس القريض ، هذا الشـــاعر ، أو ذاك .

فالصحيح أن تقول ــ مثلاً ــ :

(إذا الشعب يومًا أراد الحياة .. فلابد أن تستجيب الســـلطات) [1] أى على السلطات أن تستجيب لمطالب شعوبها بمنحها مزيـــدًا مـــن الحرية ، والمشاركة فى صنع القرار ، والعمل على رفـــع مســـتوى حياته .. إلخ .

وذلك لأن حتمية استجابة السلطات لإرادة الشعوب واردة بل هى واجبة ، ولا يصح هذا فى حق الله أو جانبه عز وجل .

وبرغم خطأ هذا التعبير (فلابد أن يستجيب القدر) فقد رســـخته فى أذهان الناس قنوات التعليم والثقافة والإعـــلام المختلفـــة ، حتـــى

---

(١) من مقال للأستاذ محسن محمد .

أصبح يجرى على الألسن سهلاً ميسورًا [1] ، بينما لا يوجد مقام واحد يناسبه هذا المقال .

وبالطبع ومع اتساع دائرة ترديد هذا القول نجده يتسرب إلى ألسنة عِلْية القوم والمسئولين ، فقد سئلت شخصية سياسية رفيعة المستوى ، فى لقاء صحفى – عن تعليقها على أزمة سياسية ما ، فقال : (لقد توافرت كل العوامل والأسباب فكان حتميًا أن يستجيب القدر) .

---

(١) وأقول وبعض مناهج التعليم واختيارات نصوصها .. مراجعه .

الفصل الرابع

نماذج

(مما قلَّ وتاهت فى الزحام دلالته
من المصنفات غير المسيئة للقدر)

الفصل الرابع

نماذج

(مما قلّ وتاهت فى الزحام دلالته
من المصنفات غير المسيئة للقدر)

كما أشرنا فى مقدمة الفصل الثالث ، فإن هناك فئة من الناس فى المصنفات التى تناولتها هذه الدراسة يؤمنون بالقدر ، مقصوداً به إرادة الله أو قسمته التى يجب تقبلها والرضا بها ، وهذه الفئة قليل وجودها فى الأعمال الفنية أو الثقافية أو الإعلامية . ومنها :

١ ـ " موعد مع القدر " :

هذا هو اسم فيلم سينمائى ، تفيض قصته وحواره إيمانًا بالقدر فى أهم جانبين من جوانب حياة الإنسان ألا وهما :

أ ـ الزواج وما تعارفنا عليه بتعبير القسمة والنصيب .

ب ـ الموت كنهاية لحياة الإنسان الدنيوية عند أجل محدد .

وذلك مع كل التقدير والاحترام لكل ما يرتبط بمفهوم القدر مـــن تعبيرات أو تصرفات أو مواقف ، حيث يحكى الفيلـــم قصـــة طبيـــب أصابته أشعة ذرية بالسرطان أثناء إجرائه بعض تجاربه فى العـــلاج بالذرة ، فيصبح هو المريض ، لكنه المريـــض الواعـــى المثقــف ، المؤمن بقضاء الله وقدره ، وكذلك كان كل من حوله من شـــخصيات القصة ، وكان استقبالهم جميعًا لقضاء الله وقدره ، يدل علـــى عمـــق إيمانهم ، وكذلك كانت كل المواقف الدرامية فى الفيلم بشأن الـــزواج والمرض والموت .

٢ ـــ " القدر الرحيم " :

فى أحد أحاديث معلق رياضى أكاديمى مثقـــف علـــى بعـــض الأحداث الرياضية الخطيرة فى سباق السيارات قال : (ولكن الأقـدار كانت رحيمة ، وتم إنقاذ اللاعب وتحطمت السيارة) .

٣ ـــ " نحن لا نهرب من أقدارنا " :

ـــ فى إحدى أغنيات مطربة كبيرة مشهورة تقول :

وكيف أهرب منه ؟ إنه قـــدرى .

هل يملك النهر تغييرًا لمجراه ؟!

ـــ وفى أحد أفلام سهرة (بانوراما فرنسية) القناة الثانية بـــالتليفزيون المصرى جرى هذا الحوار :

ـ الشخص الذى فى السيارة من خلفنا يريد قتلى .

ـ لماذا لا تهرب منه ؟! .

ـ نحن لا نهرب من أقدارنا .

٤ ـ " من الجنون أن نحاول إيقاف القضاء والقدر " :

وجاء فى إحدى أغنيات مطربة كبيرة كتبها شاعر مرموق :

فما أنا مجنونة كى أوقف القضاء والقدر .

وما أنا مجنونة كى أطفئ القمر .

٥ ـ نحن لا نعاند القدر :

فى إحدى أغنيات مطرب آخر يقول : (إنت إيه ما بتتعبيـــش ؟! ياللى بتعاندى القدر) .

فهو ينكر عليها عنادها القدر .

٦ ـ وأخيرًا .. إنه القدر "

فى مسلسل أمريكى يذاع فى العـــالم كلـه تقريبًـا جـاء فيـه الحوار التالى :

ـ البطل وزوجته : كيف تعرفتما ؟

ـ ممثل آخر وخطيبته : ذات ليلة على العشـــاء أثنــاء عملنـا التطوعى فى إحدى الجمعيات الخيرية .

ـ زوجة البطل : إنه القدر .

فهم يثنون علـــى القــدر ، ويــرون ارتباطــهما أو خطبتــهما أو زواجهما الذى بدأ بالتعارف فى حفل خيرى قدراً محموداً .

٧ ــ " الرضا .. والقدر " :

فى أغنية تتر مسلسل عربى ، متعدد الأجزاء يذاع فى كل البـلاد العربية جاءت هذه الكلمات : (ومنين بييجى الرضا .. من الإيمـــان بالقضاء) الأمر الذى يدل على مدى رسوخ عقيدة الإيمان بما قـــدره الله أو يقضى به ، وضرورة قبوله والرضا به .. بل الرضا العام بـــه الذى هو الطمأنينة والأمان ، أو الاستقرار النفسى والقلبى .

٨ ــ " جينا .. ومش بإيدينا :

هناك فرق ، بين أن يتساءل المسلم أسئلة تبرم أو ضيق ، متعلقة بسبب مجيئه للحياة ، وبين أن يسوق حديثه فى هذا الشأن ، طَــرَح [1] المتعلم طالب المعرفة ، أو من يتحدث عن حقيقة لا دخل لــه بــها ، وهو قابل بها .

أنكرنا من قبل أن يتساءل البعض : لماذا جئت للحياة ، أو لمــاذا لم أُستشر فى ذلك ؟ لكن مجرد أن يقول البعض (لا دخل لـــى فـــى

---

(١) أى كطرح.. كما يطرحها المتعلم .. وضّحه ، مراجعة .

مجيئى إلى الحياة) فهذا إقرار منه بإرادة الله العليا ، التى أتـــت بـــه إلى الحياة ، وهو راض بإرادة الله ، وهذا ما ورد بـــإحدى أغنيـــات مطرب كبير ، حيث يقول : (وزى ما جينا .. جينا ومش بإيدينـــا .. إلخ) .

ـ وكذلك لا حرج أن يقول البعض (وأنا كل ما أقــول التوبـــة يا بويا ترمينى المجادير) أى المقادير .. إذ كان يقصد أن المقـــادير تدفعه إلى عمل طيب أو مشروع ، كان هو قد تكاسل عنه ، أو عــزم على ألا يفعله فغلبته المقادير على فعله ، فأصبح يحمد الله ، أو يتغنى ويحاكى ، بما قسم له ، أو ما ساقته المقادير إليه .

والعكس غير صحيح ، فليس للإنسان أن ينسب إلى المقادير أنها ساقته إلى سوء ، أو منكر كان قد عزم على التوقف عنه ، وذلك لأن المقادير (بمعنى قدر الله) لا تأتى إلا بخير . فـــإن كـــانت مقـــادير الإنسان خيرًا حمد الله ، وإن كان غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وأخيرًا ، يحمد للبعض إنكارهم للصدفة ؛ لأنه لا يقع شىء فـــى ملك الله إلا بقدر معلـــوم ، ويحمـــد للآخريـــن أنـــهم ـ بـــالأقل ـ لا ينسبون ما يقع بهم ، أو يمرون به إلى (الصدفة) ، وإنما يرونـــه (قدرًا) ففى فيلم سينمائى عربى يقول أحد أبطاله : (حســـيت إنـــها مش مجرد صدفة ، دا قدر) .

وكما سبقت الإشارة إليه فى مقدمة الفصل الثالث أيضًا ، فهناك فئة أخرى من المصنفات الفنية ، يتحدث أبطالها عن القدر ــ لفظًا ــ ويقصدون من الناحية الموضوعية مسئوليتهم عن اختيارهم أو قرارهم ، وهؤلاء حينما يتوجهون باللوم للقدر ، فإنما يقصدون أنفسهم هم ، وكذلك حينما تبدر عنهم إساءات ، فهى موجهة إلى شخوصهم هم وليس إلى القدر ، وإن استخدموا هذا اللفظ الجليل (القدر) . ولذا نهيب بهم التزام الدقة فى استخدام الألفاظ المعبرة عن الإرادة غير لفظ (القدر) ، خاصة أنهم يدركون مسئوليتهم تماما عما يفعلون أو أنهم مشتركون فى المسئولية عما ينزل بهم من أقدار . ومن هذه النماذج :

١ ــ " هل أخطأت أم أصبت " ؟ :

فى الفيلم السينمائى العربى المشار إليه فى النقطة السابقة يقول ممثل آخر : (عاد السؤال الذى يدور فى عقلى ، منذ اخترت قدرى الجديد : هل أخطأت أم أصبت ــ فى ــ الاختيار ؟) .

ويحكى الفيلم عن عملية زرع ضابط شرطة ، وسط تجار المخدرات ليكشف عنهم ، وعن المنحرفين من ضباط الشرطة ، ولهذه المهمة فقد تم اختيار ضابط شرطة مفصول من الخدمة ، بسبب قضية مخلة بالشرف (رشوة) والذى كان يعمل منذ فصله فى صالة بلياردو ــ المهم أنه يدرك مسئوليته عن اختيار ما أسماه

(قدره الجديد) أى العمل فى الصالة ، ومسئوليته عن اختياره (قدره القديم) أى تورطه فى جريمة الرشوة .

٢ ـ " إحنا غلطنا " !

فى أحد الأفلام السينمائية أخطأ عدد من الشباب بالتورط فى ممارسته الفحشاء ، مع بعض الفتيات ، المصابات بمرض الإيدز ، الأمر الذى ترتب عليه إصابة هؤلاء الشباب بالمرض نفسه ، فأخذوا أنفسهم باللوم الشديد ، والمراجعة القاسية ، مدركين العواقب الوخيمة لهذا المرض ، والمتمثلة فى الموت ، ومن مناقشاتهم نذكر :

ـ أحدهم : يبقى قضاء وقدرا .

ـ الآخر : (لامش قضاء وقدر ، إحنا غلطنا وكنا عارفين إن اللى بنعمله غلط) .

٣ ـ " من الظلم أن نحمّل القدر مسئولية أخطاءنا " :

هذا جانب من الصورة التى رسمها أحد الصحفيين فى مقاله المنشور بجريدة يومية بتاريخ (٢٠٠٠/١٠/٦م) :

" فى الثامنة والنصف من صباح يوم السبت الخامس من أغسطس ٢٠٠٠م خرج أحد رجال الأعمال كعادته فى طريقه إلى مصنعه فى مدينة السادس من أكتوبر .. بضعة كيلو مترات قطعها

على محور ٢٦ يوليو وفجأة جاء موعده مع الموت .. فى الطريـــق المقابل كانت هناك سيارة مسرعة تجاوز قائدها الحدود المألوفة ، ثـم ولسبب ما انحرفت السيارة ، ونتيجة للسرعة الزائدة لم يتمكن قائدهـا من السيطرة عليها ، ونتيجة لعدم وجود حاجز يفصل بيـن طريقـى الذهاب والعودة على المحور ، تجاوزت السيارة المسـرعة طريقـها واتجهت مباشرة إلى الناحية المضـادة ، ومضـت كالرصاصـة ، انطلقت ولم تجد فى كل المكان الشاسع سوى سيارة رجل الأعمـال هذا لتصيبها .. وفى لحظات انتهى كل شىء ، تحول الرجل ، الفـذ علمًا وخلقًا ، هو وسائقه إلى خبر كان .

من المسئول ؟

هل هو القدر !

من الظلم أن نحمّل القدر المسئولية ، نعم هناك قـدر ، وهنـاك موعد مع النهاية ، الى لابد أن يصل إليها كل إنسان ، ولكـن كيـف نعفى من المسئولية السرعة الجنونية التى كان يقـود بـها صـاحب السيارة القادمة من الجهة المعاكسة .

كيف نعفى من المسئولية الذين أقاموا الطريق الدائرى والمحـور من مسئوليتهم عن عدم إقامة حاجز فاصل فـى منتصـف الطريـق يحول دون تجاوز السيارة إلى الاتجاه المضاد ؟ .

بقى أن نشير إلى أن البعض يتعامل مع لفظ (القدر) باعتبـــاره مرادفًا لما يسمونه (الحظ) بعيدين به عن إرادة الله وحـــده ، وهــم مخطئون ؛ لأن الله وحده هو مقدر الأقدار بمشيئته وإرادته .

ــ فى أحد الأفلام المذاعة ضمن برنامج نادى السينما :

*** ورد هذا الحوار :**

هى .. الله هو الذى مكننا من إنقاذها .

هو .. تقولين: الله ، وأنا أقول : القدر (الحظّ) .

* * *



الخاتمـــة

فى إطار ما تسمح به صفحات هذا الكتاب ، نقتطف ـــ فى هـــذه الخاتمة ـــ سطوراً من أحد التعقيبات ، التى كتبها عنه صفـــوة مـــن المتخصصين فى علم العقيـــدة والفلســفة الإســـلامية ، وأصحـــاب الإسهامات الملموسة فى برامج الإذاعة والتليفزيون .

فى تعقيب الأستاذ الدكتور محفوظ عزام ، أستاذ ورئيـــس قســـم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعـــة المنيـــا ، جـــاءت هـــذه السطور : " يقع كتاب القدر المفترى عليه فى الإعلام العربى ، فـــى دائرة علم الكلام المعاصر ، حيث يتناول أخطـــاء تتصـــل بـــالعقيدة الإسلامية ترد فى وسائل الإعلام العربى . وهو كتاب جدير بـــالتقدير لأنه يؤصل لموضوعه تأصيلاً شرعيًا .. ويمتاز بأنه يعقـــد أحيانًـــا مقارنة بين النظم القانونية والإسلام .. وحرص مؤلفه علـــى توثيـــق المعلومات من مصادرها المختلفة . كما أن قدرة ـــ الباحث ـــ علـــى التحليل والمناقشة ظهرت جلية فى تناوله لقضايا الكتاب .

ومن حيث المنهج فقد استخدم الباحث المنهج العلمى القائم علـــى الاستقراء فيما أتى به من نماذج ، إضافة إلـــى اســـتخدامه المنـــهج التحليلى فى عرضه لهذه النماذج التـــى تعـــددت وتنوعـــت ، فمـــن

أغنية .. إلى مسلسل .. إلى مسرحية .. إلى قصـــة .. إلـــى ديـــوان شعر .. إلى كتاب مترجم .. إلى مقالة فـــى صحيفـــة أو مجلـــة .. وتتضح موضوعية الباحث حين يعرض للنماذج غير المسيئة للقـــدر أيضًا ، فهو يعتمد فى منهجه منهج المتكلمين القـــائم علـــى الشـــرع والعقل ..

إن هذا الكتاب يحمل رسالة واضحـــة إلـــى أجـــهزة الإعـــلام العربى لتنقية ما يذاع أو ينشر من كل ما يسيء إلى العقيدة الإسلامية أو يخل بها .

محتويات الكتاب

طبــع بمطبعة وزارة الأوقــاف